رواية

كمال القلش

صدمة طائر غريب

مختارات الكرمة

t.me/qurssan

صدمة طائر غريب

كمال القلش

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © كمال القلش ١٩٧٤

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

القلش، كمال.

صدمة طائر غريب: رواية / كمال القلش - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٧.

١٦٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٤٦٧٥٨٣

١ - القصص العربية.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٩٩٨ / ٢٠١٦

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

صورة الغلاف: من أرشيف شركة «فولفو» ١٩٦٧-١٩٧٤

t.me/qurssan

صدمة طائر غريب

قلبي ثقيل مثل ماء النهر، غارق وباهت في المياه التي لا طعم لها، الأيام التي مضت تراكمت وأصبح من المستحيل أن أتنفس، كنا إنسانًا واحدًا يتداخل ولا ينفصل، وتسممت المياه، وأصبحت الحياة عبئًا، أعددت نفسي للسير فوق الوهاد والجبال إلى أبعد مكان يمكن أن أصل إليه.

أمضيت يومًا مرهقًا بالحزن والشجن أمس، حتى الآن لا أشعر أنني مسافر، متبلد إلى أقصى حد، عندما يصل الإحساس والإرهاق إلى منتهاه تصل إلى مرفأ التبلد، وخوفًا من الاحتراق داخل إحساسك تتمسك بالبلادة، وتعيش داخل قوقعتها.

بمجرد أن تحرك القطار مغادرًا **القاهرة** بدأت أشرب، في المقعد المجاور لي ضابط بحري، تحدثنا عن البحر والحرب والمعركة، قال إن البحر يضعف المشاعر الجنسية في الإنسان، قال إن حياتنا متخلفة وغبية، حكى عن مطاردة البحرية للزوارق الخمسة الإسرائيلية، وكيف حماها من ضربنا الأسطولُ السادس، ووقف القطار.

ذهبت إلى فندق **بالإسكندرية**، استحممت، خلوت إلى نفسي، نزلت، جلست في المقهى، انتظرت بلا جدوى.

في الصباح ذهبت إلى الميناء، أعددت نفسي. قالت لي فتاة الجمرك:

. هل هذه أول مرة تسافر؟

قلت لها:

. سافرت من قبل.

ضحكَت، لم تفتح حقيبتي، سخرتُ من نفسي، أخذت قرصًا مهدئًا، ازدادت بلادتي، حملت حقيبتي وصعدت إلى المركب.

استندت على سور المركب من الداخل، بعد أن اكتشفت زنزانتي

t.me/qurssan

ووضعت فيها حقيبتي. سألني ضابط المركب:

. هل أنت صحفي؟

قلت:

. نعم.

قال:

. لقد هاجمَنا أحد الصحفيين في إحدى المجلات.

كان الباعة والمودِّعون كثيرين جدًّا، ولم يكن يودِّعني أحد، وأنا أفضل ذلك. الرصيف يعج بالحياة والناس والأطفال والباعة. مللت، ذهبت إلى زنزانتي، مر وقت طويل، أحسست بالهزة، المركب يتحرك، صعدت إلى السطح.

نحن نبتعد عن الميناء، نفارق الإسكندرية، عشرات المراكب تمر بجوارنا، تحيينا، تشق الباخرة المياه، تتزايد سرعتها وتبتعد، المياه خضراء وفي لون الزمرد الفاتح، بدأت إذاعة داخلية في المركب تعمل، كانت الأغنية «يا مسهرني»، الشوق، الحب، المحيط، الليل، الوداد، الماضي، الخصام، والوصال. كنت أقف وأسند وجهي على ذراعي وأدخن وأسمع، تقاسيم الموسيقى تلعب على أوتار بداخلي من الشجن والحب والإحباط واليأس، ولا أشعر أنني أبتعد أو أقترب أو ذاهب أو عائد أو بوجود ما، أنا غائب وثمل وبليد وقاسٍ ورقيق ومتماسك ومنهار ولا تتحرك مشاعري لحظة في اتجاه ما يحدث في الحقيقة، رافض تمامًا، يائس تمامًا، متوقف عن الاستمرار، ناكص، وطموحي أن أعود من جديد إلى الرحم الذي خرجت منه ولا أخرج منه أبدًا أبدًا أبدًا...

تغير لون المياه، فقاعات فضية فوق مياه خضراء داكنة، غابت الشمس ولكن الضوء ما زال سائدًا، لون المياه أزرق، المياه تحيط بنا، الطيور البيضاء تحلق وتنتظر، ذهب الجميع ولم يبقَ غيري، مضت ساعات طويلة لم أفتح فمي لأحد، نفدت سجائري، اشتريت سجائر، وزجاجتين من الويسكي، أشرب من عنق

t.me/qurssan

الزجاجة مباشرة.

ما زالت أم كلثوم تغني، طرقات المركب امتلأت بركاب «الأون ديك» (السطح)، نساء يجلسن في الطرقات، مثل فقراء الأحياء البلدية، فتاة سمراء يبدو أنها راقصة من الدرجة العاشرة، قصيرة، رفيعة، ترتدي بنطلونًا، متماسكة، ملامحها مضمومة، تسافر على السطح، تنام في العراء، لا تنوي الابتذال مع أحد، تعرف طريقها، محددة تمامًا، سترقص وتنام في بيروت بثمن حددته من قبل، ملامحها لا تقبل المساومة ولا الضياع الوقتي، التقت عيوننا ولم أقترب منها، ولا هي اقتربت. في ممرات المركب عدد كبير، قد يصل إلى المائة أو أكثر، من الفقراء الذين يناضلون وينقبون الأرض من أجل الرزق، معهم أقفاص من المانجو والبطيخ وبوابير الجاز، وكأنهم في رحلة قديمة من رحلات الحج، ينامون في عرض الطرقة. قال واحد:

. امرأتي في مصر حامل وتتقيأ كل يوم.

قال ثانٍ:

. هذه هي المرة المائة التي أذهب فيها إلى بيروت.

قال ثالث:

. سأعود على نفس المركب غدًا.

تجار صغار فقراء، بعضهم بالجلاليب والملابس القديمة، وجوههم مغضنة وتمتلئ بالفجوات. في الدرجة الأولى فتاة مع أبيها، في الخامسة والعشرين، قصيرة سمراء هادئة، أبوها هادئ مستكين، أسرتني عيناها، التقت عيوننا، رفيعة متحفظة غامضة، لا تبتسم، التقت نظراتنا طويلًا، واثقة متماسكة، شعرها أسود أنيق، أصابعها رقيقة، شفتاها رقيقتان، ابتسمت مرة، أبحث عنها لأراها، أتمتلئ عيناي بالحلم الذي لا يتحقق؟ ولماذا يتحقق؟

رجل وامرأته، رجال ونساء، عدد قليل من الشباب، سيدة كبيرة فوق الستين رائعة القوام والملامح والجدية والهدوء ومعها ابنها

t.me/qurssan

في العشرين، مرتبط بها تمامًا، يلبس قميصًا أصفر، له ضب صغير، أنيق بلا ابتذال، حنون مع أمه، كأنهما وحيدان في العالم، منطوٍ مهذب جذاب يلبس نظارة سوداء، لا ينفتح على العالم. عالمه أمه. نساء مع أزواجهن يلبسن البنطلونات الأنيقة، ويذهبن لتغيير ملابسهن كل بضع ساعات، البشرة بيضاء، الشعر مرتب، ولكن الزيف يغرق الملامح ويطمسها.

لا أشعر للحظة واحدة أنني أنتمي لشيء، أشعر أنني وحيد، لا فائدة حتى من الويسكي، لم يزلزل حزني وجمودي وبلادتي في مواجهة العالم، فقط ألف وأدور، أتفرج، ألتقي بالحلم المجهض الذي لا يتحقق، فأنا لا أقدم على شيء ولا أحد يقدم نحوي.

منذ خرجت من المعتقل لم أحس بوطأة الحياة مثلما شعرت بها هذا العام، في بداية خروجي وأنا أعود إلى العالم كنت متوهجًا، قويًا قادرًا، التحقت بالعمل، كتبت، أحببت، وعندما انفض زملائي وتفرقوا، وأصبح كل إنسان يقف على حذائه وحيدًا مبتعدًا، لم أشعر بالهول ولا بمرارة الوحدة والانغماس، ومضت الأعوام، وفي هذا العام تراكم الجفاف والتثبيط واليأس والحزن، فقدت قدرتي على الكتابة، وقدرتي على المقاومة، وكانت هذه أعظم قدراتي.

دقت طبول الطعام، الثامنة مساء، أكلت قطعة سمك مقلي، قطعة من بطة، قطعة من فرخة، سلطات، خضارًا، وفي النهاية جلاس.

ونحن نأكل في مطعم الباخرة الفاخر انفجر الرقص في الطرقات الخارجية التي تضم الفقراء، والأغاني، «يا بيوت السويس»، والرقص الرجولي الجذاب. من خلف زجاج المطعم الفاخر رأيت رجلًا رفيعًا في الخمسين يرقص، والطبلة تدق وإيقاع بالأيدي يهز القلب. كانوا يروننا ونحن نأكل طعامنا الفاخر، وانتهى الرقص والأغاني بإيقاع حادٍّ مدوٍّ على المركب كله، «إحنا جعانين وعاوزين ناكل»، وظل هذا المقطع يتردد عاليًا حتى جاء ضابط المركب، وفصل بين ركاب كل درجة وأخرى.

شربت من عنق الزجاجة لكي أنام، فكرت في منى، حبي وإخلاصي لها، وكذبها المتواصل، ورغبتي الشديدة في التخلص

t.me/qurssan

من أسرها ونسيانها، لا بد أن أقهر مشاعري وأستعيد نفسي، وغرقت في النوم.

في الصباح كنت أنتظر عينيها في صالون الباخرة، حلقت ذقني وذهبت، وكانت الدرجة الأولى كلها مجتمعة، والتقت عيوننا، شربت قهوة، كانت تجلس مع أبيها العجوز الصامت القصير، وكان الشاب ذو القميص الأصفر يجلس مع والدته، وجلست بجوارهما، وجاءت الأسر والأطفال، وكان الحر خانقًا، وسرت في طرقات المركب، كان الفقراء قد استيقظوا وفرشوا الصحف القديمة، وأكلوا عليها الجبن والفلفل الأخضر والبصل، وكانت المومس المحددة قد ارتدت رداء من الماكسي وجلست بجوار اثنين من «الهيبيز».

نزلت إلى زنزانتي لأكتب، لعل الكتابة والحديث الصامت يخففان من كآبتي ووحدتي وحزني وبلادتي، الساعة الآن الواحدة ظهرًا، أحس بالعالم بل بالكون كله. كلما أنظر إلى نهاية ما يمتد إليه البصر ولا أجد شيئًا غير السماء تنطبق على المياه كحلية اللون، والشمس محددة وليست صاخبة، أحس بأنني وكل من سبقوني ومن سيأتون بعدي أسرى لقوانين الكون التي لا تقبل الهزل ولا التطويع، وأنها سادرة في سيرها بلا ذرة اهتمام بالإنسان، وأنها الحقيقة السرمدية منذ الأزل وإلى الأبد، ونحن تحت هذه القوانين نزحف كالنمل، نظن أننا «نتمرد»، ولكن الحقيقة أننا تحت هذه القوانين بلا قدرة. السماء هائلة، المياه لانهائية، الكون لانهائي، القمر والشمس كأوضح ما يكون، الأرض لا أرض، لا مرفأ، لا نجاة، غير أن يغوص الإنسان في داخله ويكتئب، ويلتقي بعين غامضة تلتقي بعينيه وبشجنه وحزنه ويأسه.

أبطأ المركب في السير، لم تظهر **بيروت** في الأفق بعد. المركب نقطة وسط دائرة كاملة، بدت **بيروت**، وظلت تكبر وتكبر، درنا حولها، تبدو مدينة مبنية فوق هضاب وتحف بها جبال خضراء، دخلنا البوغاز، امتدت الحبال من المركب لتربطه برصيف الميناء، صعد ضابط الميناء إلى الباخرة، قال:

t.me/qurssan

. صحفي؟

قلت:

. نعم.

قال:

. أهلين.

قال الضابط لمساعده:

. ضع علامة × على الكارت الخاص به.

انتهت الإجراءات على الباخرة، التقت عيناي بصديقي، كان يقف بعربته «الفولفو»، أخذنا الحقائب وركبنا العربة، قال صديقي:

. إذا لم نستطع أن نفارق بيروت غدًا فلنفارقها بعد غد.

قال:

. لديَّ شقة فاخرة أمضيت فيها عشرين يومًا أنا وزوجتي وابني، ولقد أرسلتهما بالأمس إلى القاهرة.

وصلنا. غسلت وجهي، فتحت الثلاجة، أخرجت برقوقًا مثلجًا، أكلت، استرحت قليلًا، نزلنا، سرنا في شوارع بيروت، أحسست بالراحة والانطلاق، هذه أول مرة أرى فيها بيروت، أحب أن أرى المدن لأول مرة! جلسنا، شربنا، راقبنا المارة، تحدث صديقي عن الشهور الأخيرة التي مرت به، قال إن عام ١٩٧٢ عام بشع ولا يُحتمل. فيه ماتت أمه فجأة، ذهبت للحج وذهب ينتظر عودتها، وفوجئ وهو في المطار ينتظرها بالخبر، وبأنها دُفنت هناك ولن تعود. كانت الصدمة موجعة، كانت الشهور التي مضت من نفس العام مكتظة بالمأساة والموت والعمل والإرهاق العصبي والصراع مع رؤسائه، سقط من الإرهاق، أحس بالموت يقترب منه ويحاول افتراسه، زحف على الأرض حتى وصل إلى التلفون، طلب أن ينجده أحد، نقلوه إلى المنزل، لازم الفراش مريضًا. اقترب من الموت على جميع المستويات، وأعد نفسه له وهو لم يبلغ الثالثة

t.me/qurssan

والثلاثين. بدأ حياته متمردًا ومستقلًّا، ناقض أباه، واصطدم بسطوته وجبروته، وعندما انتهى من كلية الطب سجَّل اسمه في الدراسات العليا، وسخر منه الجميع، فلم يُعرف عنه ولع بالعلم، وازداد إصراره وحصل على الماجستير، أحب فتاة، ورغم المعارضة الشديدة أصر وتزوجها، وعندما جاءت الفرصة انطلق إلى قطر، وأصر على المواصلة، وحصل على الدكتوراه، وكانت مفاجأة للأوساط العلمية، واستطاع أن يجعل من عمله معملًا لأبحاثه، ولكن الطريق عاد مرة أخرى إلى الانسداد، الإحساس بالغربة، التآمر الصغير في دائرة العمل، وعاش مهددًا بأن يقولوا له: «كفى، عد إلى القاهرة بلدك وابدأ من جديد». هل يواصل طريقه العلمي؟ ولكن إلى أين ولمن ولماذا؟ هل يظل في قطر؟ وإلى متى؟ هل يعود إلى وطنه؟ ولكن ما الذي يستطيع أن يعمله؟ هل يجهزون له معملًا رائعًا مثل الذي أعده وكونه هناك، أم يعمل داخل مستشفى في ريف مصر، ويقبض أجرًا زهيدًا؟ هل يذهب إلى أوروبا وأمريكا ليواصل دراسته العلمية؟ لكن وبعد، ما الذي يستطيع أن يفعله بعد ذلك؟ وزوجته التي مضى على زواجه بها أكثر من ثماني سنوات، وقد ذهب وهج الحب وتحولت الحياة إلى رتابة وإلى أسلوبين متناقضين في الحياة، وقد كبر ابنه وأصبح له من العمر سبع سنوات. ولم يعد للجنس طعم، وذهب التوافق والتجانس والعمر في بدايته، بل إن حياته نفسها تعاني من ضغوط الإرهاق التي تهدد بأمراض العصر، وهو في حاجة إلى إجازة حقيقية، إلى انطلاق، إلى تجربة يغرق فيها نفسه ويغتسل ويرى الحياة بأقصى ما تستطيع عيناه، وبعدها يعود ليفكر في كل مفارق الطرق التي يقف أمامها، لعل الحياة تورق وتخضر من جديد وتدب فيها السخونة.

* * *

عندما شعرت منى بالسخونة على فخذها، كانت المُدرِّسة تشرح الدرس، ونظرت منى إلى ساقيها ورأت خيطًا رفيعًا من الدم، شهقت من الخوف والدهشة وبكت وتوقف الدرس، واقتربت المُدرِّسة لترى ماذا حدث، ضمتها إلى صدرها، وجاءت عربة أبيها

t.me/qurssan

وأخذتها من المدرسة إلى المنزل، وكان يومًا مشحونًا غريبًا، امتلأ بالفرح والأسى، ولكن منى امتلأت بالقلق والدهشة، وفهمت لأول مرة أن الذي حدث لها سيتكرر، وستظل عدة أيام من كل شهر تنزف، وعندما بلغت الخامسة عشرة، كان شعرها بنيًّا غامقًا ينسدل في ضفائر طويلة خلف ظهرها، كان صدرها ناهدًا مكتنزًا، ملامحها سوداء صارخة، تجذب، وكان ابن عمها يتعرَّض كل يوم للشبان الصغار ويفضهم من السير خلفها، ويبدأ العراك والخناق كل يوم، وهي سائرة لا تلوي على شيء، وكانت في أعماقها تضيق بسلوك ابن عمها العصبي الحاد. كانت حلمًا لكل شباب القرية، وكانت تعرف هذا جيدًا، ولكنها كانت تهفو لكامل شقيق صديقتها، إنسان رقيق هادئ بعيد عن كل هذا الشغب، يتعبد فيها ويحبها بينه وبين نفسه في نبل ورقة وشوق لا يرتوي، كانت تراه ويراها في منزل صديقتها، مجرد أن يلمس أصابع يدها كانت ترتج، كلماته البريئة المشحونة الهادئة تظل تحتضنها وتسير معها، وتحلم بها، ومر عام تبادلا فيه بجرأة كلمات الإعجاب، وسرى الحب في عروقها ونبضها، وكان هذا حلمها وحبها الأول، وعاشت في خيالها حياة كاملة مع حبيبها، وتصورت الحياة بدونه جحيمًا وظلامًا. وفجأة جاء الضابط الكبير وتحدث مع أهلها وخطبها، ولم تكن قد رأته قَطُّ، وحبست نفسها ثلاثة أيام تبكي، وامتنعت عن الطعام وعن مواصلة الحياة، واجهت كل المشاعر والأحلام والحب، ورضخت، وزُفت إليه، وذهبا ليمضيا شهر العسل، ونزلا في فندق صغير يطل على ورش ميناء الإسكندرية، وكانت الليلة الأولى مأساة، وذهبا إلى الطبيب، وبعدها تفجر الدم غزيرًا، ومضت الأيام غريبة وأحيانًا كئيبة وخانقة، وعادا إلى القاهرة. كانت تهفو لكامل حبيبها الذي أصبح هو الآخر في القاهرة في الجامعة، وبعد شهور انتقلت إلى أسوان، وعجز الزواج أن يعطيها الحنان والحب، وحاولت جاهدة بكل ما تملك من قوة أن تخترق الحواجز لكي يتدفق الحنان من زوجها وأن تتبادله معه، ولكنها أخفقت. كان زوجها لا يدرك الدروب الداخلية للمرأة وأشواقها، كان غارقًا في عمله، داخله مقفل وأجوف وجاف. انهار كل شيء، والتهبت بالأحزان والشجن

t.me/qurssan

والحلم بعد أن اكتوت بالنار كيًّا، وعانت معاناة مدمرة، واحترق داخلها، واحتل مكان هذا كله العطش الجنوني للحنان ولموازنة الهزيمة والحلم والاكتشاف واللقيا والقبلات والأحضان والتلامس والآهات العذبة والتدفق. وعندما اقترب أول رجل في أقاصي الصعيد قالت له:

. أرجوك لا تبتعد، لا تتركني.

ومع كل عينين التقتا بعينيها أطفأت شوقها، ولم تكن للحظة واحدة خبيثة أو سيئة، وإنما كانت فقط عطشى ترتوي، والزوج عاجز عن الفهم وعن الدخول إلى دروبها السحيقة المتشوقة للحب والحنان.

***

بجوار صخرة تنهمر من قلبها المياه، جلسنا نأكل، مياه الشلالات لا تروي ما بداخلنا، جاءت البيرة ومعها اللوز الأخضر والفراريج المشوية، أكلنا، ذهبنا إلى اتحاد العمال، استمعنا إلى مشاكل العدوان، نزلنا، اشترينا الطعام المحفوظ، والصابون ومطواة ومايوهًا، واصلنا السير في المدينة، صديقي عمر يعاني من آلام في أسنانه، سقف حلقه ملتهب، عدنا إلى المنزل في التاسعة، شربت كأسين من الويسكي، أعددنا الحقائب، جلسنا وفردنا الخرائط، وحددنا الطريق الذي سنسير فوقه غدًا، ناقشنا خطة السير، سنبدأ رحلتنا غدًا من بيروت وننام في تركيا الليلة القادمة، الطريق الأساسي الذي سنعبره إلى تركيا اسمه «E٥».

استيقظنا في التاسعة صباحًا، لم أغير توقيت ساعتي، ذهبنا إلى طبيب الأسنان ليَطمئن صديقي عمر على سقف حلقه وعلى المضاعفات، طمأنَنا الدكتور، عمر يعاني آلامًا حقيقية، ملأنا ثلاجة صغيرة معنا بمياه باردة وثلج مجروش، ذهبنا إلى محطة بنزين، غسلوا العربة وملأوها بالبنزين والزيت، عدنا إلى شقتنا، أخذنا الحقائب والكاميرات والطعام المحفوظ والكتب، كتبنا برقية إلى صديقنا في برلين لينتظرنا. بيروت مدينة شرقية لا تستطيع أن تحبها ولا أن تكرهها، لا تدخل قلبك، تتفرج عليها من الخارج.

t.me/qurssan

* * *

انطلقنـا مـن ميدان البـرج فـي الواحـدة ظـهرًا، توقفنـا فـي «**طرابلس**»، أكلنا ساندويتشات، قمنا بجولة داخل المدينة، انطلقنـا، توقفنا أمام الحدود اللبنانيـة في الثالثة والنصف، في قريـة الحدود (العريضة)، ختموا الباسبور، سرنا طويلًا، توقفنا أمام الحدود السورية، ختموا الباسبور، قال الضابط:

. مرحبًا بكم.

انطلقنا، تفادينا دمشق لنسير في طريق مباشر، القرى السورية متباعـدة، وفقيرة، المزارع والمراعي، الطبيعـة رائعـة، الهضاب والمرتفعات الخضراء والغابات، الجو رائع، الطرق المسفلتة قديمة وفقيرة، السماء صحو، الراديو يغني ونحن لا نتحدث إلا قليلًا، عيناي على الطريق والناس والجبال، اجتزنا «**اللاذقية**»، أصبحنا نبعد عن الحدود التركية أربعة وخمسين كيلومترًا، الطريق يضيق ونصـعد الجبـل، قريـة الحـدود اسمها «كسبا»، هـذا هـو هـدفنا، الطـريق يضـيق أكثـر فـأكثر، ونحـن نصعد الجبـل ونلـف حولـه، اختفـت العربـات عـن الطـريق، أصـبحنا نحـن والصمت والجبل، اختفـت الشـمس خلـف السحاب، لافتـات كل بضعة كيلومترات تحـذر من وعورة الطريق، السير يصبح أكثر صعوبة فوق هذا الارتفـاع الشـاهق، وصـلنا إلـى السـحاب، أصبح السحاب يغطي الطريق نفسه ونخترقه وتمد يديك وتكاد تلمسه، وارتفعنا، أصبح السـحاب تحتنـا علـى الهضـاب، والطريق يتواصـل ولا ينتـهي ويتعرج بنا كل لحظة، تحتنا هوة لا ترحم، بجوارنا جدار الجبل ملاصق لنا، لافتة مكتوب عليها: «الصخور تسقط عليك في أي لحظـة، احـذر»، لافتـة أخـرى: «لا تُلقِ بـأعقاب السـجائر حتـى لا تحتـرق الغـابات»، انقطعـت اللافتـات، أصـبح السـير ومواصـلته رهيبًا، انقطعـت العربـات، أحـسسنا أننا فقدنا الطريق الصحيح، وأننـا لا بـد قـد أخطـأنا، الطريق يلتـوي ويتـواصل ولا ينتـهي ولا يطرقـه أحـد غيرنا، قلنا: فلنسر حتـى نجد لافتة، وجدنا عمودًا صـغيرًا من الأسمنت مغروزًا علـى حافـة طريق الجبل، توقفنا،

t.me/qurssan

نزلت من العربة، فقد يكون مكتوبًا عليه شيء، لم نجد شيئًا، قررنا أن نتوقف عند أول قرية فوق الجبل لنسأل، بعد ساعة سيدهمنا الليل. من بعيد كانت عربة تقترب، أشرنا إليها، وقفت، كانت بالداخل عائلة، سألنا:

. هل هذا طريق كسبا؟

قالوا:

. نعم، على بُعد خمسة كيلومترات.

استرحنا، بداخل العربة امرأة جميلة وأطفالها، انتعشنا، واصلنا السير فوق قمة الجبل الذي بدأ ينحدر بنا، وعلى البُعد اقتربت من أبصارنا بعض المباني، أخيرًا جدًّا وصلنا **«كسبا»**، قرية الحدود السورية-التركية، توقفنا. قال ضابط الحدود السوري عندما عرف أنني صحفي:

. هل معك مجلة؟ فنحن نظل أسبوعًا فوق الجبل.

أعطيته مجلة «الصياد». قال لصديقي عندما عرف أنه دكتور:

. هل معك دواء للمصران الغليظ؟

أعطاه صديقي دواء مهدئًا. قال لنا:

. هل تريدون تحويل عملة سورية إلى ليرات تركية؟

قلنا مجاملة:

. نعم.

قال لنا:

. لا تتركوا العربة في شوارع تركيا حتى لا يعطبوها ويسرقوا محتوياتها لأنهم لصوص.

ضحكنا، سرنا، بعد أمتار توقفنا مرة أخرى أمام الحدود التركية، أمام مبنى الحدود كافتيريا، جميع الضباط يجلسون فيها يلعبون

t.me/qurssan

الطاولة. تركونا دقائق حتى انتهوا من اللعب، فحصوا أوراق العربة والباسبور وختموها ببطء شديد. على الحائط خريطة لتركيا، لأول مرة أشعر أنها آسيا الصغرى. انطلقنا في السابعة مساء من الحدود التركية، هدفنا أنطاكية على بعد ستين كيلومترًا تقريبًا. سرنا. الطريق متعرج وحلزوني ومميت، تصعد وتهبط حتى تصل إلى قمة من القمم، ونحن نسير على ظهر جبل ضخم، الطريق مسفلت وعلى يمينك الهوة، وعلى يسارك جدار الجبل، الطريق موحش والسحب تخترقك. الصمت ودوي العربة فقط. انتهى الكلام، أصبحت الحواس كلها على الطريق. فجأة برزت قوة عسكرية تركية واعترضت العربة. وتوقفنا وفحصوا الباسبور، ونزلنا من العربة، الهواء بارد وعاصف، فتحنا حقيبة العربة الخلفية، فتشوها. الضابط يفحصها ببطء وبجواره جنود يصوبون نحونا سناكي البنادق، وللحظة فكرت وفكر صديقي: يستطيعون ذبحنا وإلقاءنا من فوق الجبل ويستولون على العربة والنقود. وتجمد الدم من الوحشة وتوقع الرعب المحتمل، حيانا الضابط، وسمح لنا بمواصلة السير.

الطريق لا أمل في أن ينتهي، ولا أحد نراه، والليل يهدد بعد لحظات بالتوغل. ولكن هذا كله لا يبدد المتعة. متعة السير ولأول مرة. تركيا لأول مرة وليكن ما يكون، واحتمالات أن نصل إلى أنطاكية وننام داخلها ونتحدث. كل بضعة كيلومترات نرى إنسانًا ذقنه أبيض وملابسه فقيرة. أطفالًا يسوقون البهائم والأغنام على سفوح الجبال. بيتًا هنا على ظهر الجبل وبيتًا هناك. آثار الإنسان المقاتل في مواجهة الطبيعة. الجبال نفسها تلمح يد الإنسان فوقها، أحجارًا مرتبة مرصوصة لتحمي بضعة أمتار مزروعة، الزرع وسط الصخور، الرعي وسط الأخطار. الطريق نفسه تعبير عن روعة الإنسان الذي عبَّده، وتمضي العربة وسط هذا كله، ولا يتسع الطريق أبدًا ولا تنتهي الكيلومترات الستون. الدقيقة كأنها عمر كامل، وتبدو من بعيد أضواء متناثرة على جبل آخر سينقلنا الطريق إليه، ونمضي ويستوي الطريق قليلًا، ونبدأ في الهبوط مع الطريق، ونمضي ونمضي، ونمضي حتى يقترب الضوء، ويشق الطريق قرية صغيرة نمر وسطها، الجزار والحلاق والمساكن

t.me/qurssan

ودكاكين الخضار والدجاج، نواصل السير، بقي من الطريق عشرة كيلومترات، ولا تنتهي أبدًا هذه العشرة كيلومترات، ونقترب من المدينة، ونصبح على أطرافها، وتبدو الأطراف واسعة جدًّا، الطرق مضاءة بأنوار النيون مثل مدينة بَنها، ونسير وينتهي النيون ونصبح على بداية أول شارع من شوارع **«أنطاكية»**، وننتهي من الشارع ولا نجد فندقًا واحدًا. ونعود من حيث جئنا إلى بداية المدينة، ونسأل، وندخل في شارع ضيق آخر، يقودنا شاب بعجلة بخارية إلى أكبر فنادق المدينة، فندق «أطاهان»، وندخل، ونفاجأ بأنهم يتكلمون العربية. أخذنا دشًّا ساخنًا، استرحنا ساعة، تركنا الفندق، سرنا في طرقات المدينة، الفتيات النضرات والمحلات والمخابز والكازينوهات، سرنا حتى أرهقنا السير، دخلنا أحد المحلات الصغيرة لنشرب «كوكاكولا»، قال الرجل:

. هل أنتم سوريون؟

قلنا:

. من مصر.

قال:

. لا أحد يأتي من مصر، هذه أول مرة في حياتي أرى شابًا مصريًا هنا!

قال الرجل:

. إن الأغلبية في أنطاكية سوريون. هذه المنطقة كلها حتى أدنة (قطنة) ستجدونها تتحدث بالعربية. منذ أكثر من ثلاثين عامًا سلم الفرنسيون لواء إسكندرون إلى تركيا.

تحدث عن حرب ١٩٦٧، وعن الحزن يوم مات عبد الناصر، وتمنى أن ننتصر، فرح بنا الرجل، كان اسمه حسن، يناهز الخمسين، رفض أن يتقاضى ثمن «الكوكاكولا»، قال:

. هذه تحية.

t.me/qurssan

واصلنا السير، دخلنا محلًا آخر، طلبنا زبادي، جاء الزبادي ومعه زجاجات مقفلة بداخلها مياه، قالوا إنها مياه معبأة من ينابيع الجبل، كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل، عدنا إلى الفندق، صعد عمر لينام، جلست أنا في صالة الفندق وجاء الجرسون، تحدثنا، اسمه عيسى أنطوان، ترجم لي الصحف التركية، قال إن الحكومة العسكرية التركية أعدمت مئات من المناضلين بعد حادث القنصل الإسرائيلي، قال إن المقاومة في الجبال، قال:

ـ قبضوا على عدد من الناس يديرون مدرسة لتعليم اللغة العربية.

قال:

ـ أنطاكية مدينة زراعية وبها مصنع واحد كبير.

تحدث عن الأجور، وعن صعوبة الحياة وارتفاع الأسعار وانخفاض مستوى الدخل. أخذت الصحف وصعدت إلى حجرتي، تمددت على فراشي، تذكرت اللحظات الأولى من حبنا الملتهب، سألتُ منى مرة قبل أن تنفصل عن زوجها:

ـ كيف يحدث التوافق؟ وكيف يتلقى داخلك هذه العلاقات المتناقضة؟

ضحكت وهي تحكي لي، كانت علاقتها بزوجها الذي انفصلت عنه علاقة غامضة، فحتى آخر يوم قبل انفصالها عنه كانت تذهب إليه وتُقبّله ويُقبّلها قُبلة الصباح قبل أن يخرج، ويتكرر هذا عندما يعود من عمله، وعندما تنام في الليل كان يمد لها ذراعه المفتولة القوية لكي تضع رأسها عليها وتنام، تعودت أن تنام هكذا حتى آخر لحظة، فوق ذراعه، حتى بعد أن أصيب وفقد بعض الأشياء الأساسية وتبقت منه أشياء، واستمرت العلاقة الزوجية، كان يحظى منها بالاحترام والألفة والمودة اليومية. قالت:

ـ ولماذا أكرهه؟ هناك عواطف من نوع آخر لا أدري كيف أصفها لك.

t.me/qurssan

وكان هذا غريبًا بالنسبة لي. هل تريد التكامل المطلق في الحياة دون أن تفقد شيئًا؟ لا تريد التنازل عن شيء أبدًا مما ترغمنا الحياة على فقده ونسميه «التضحية» أو «الموازنة»، تريد الزواج الاجتماعي، والمال والمظاهر الاجتماعية وجوهر الحياة والحب والإشباع الإنساني العاطفي المشبوب. ولماذا تفقد شيئًا وهي قادرة على الحصول عليه؟ قالت مني:

ـ إن قصتي مع الأطفال قصة طويلة، وفي بداية زواجي الذي امتد خمسة عشر عامًا كنت أهفو إلى طفل وأنتظره، وبعد فترة أصبحت المشكلة الأصعب أن أواجه الناس وأحس بهمسهم كالدوي في حياتي: «لماذا لم تحصل على طفل؟». وتحول الأمر بعد فترة إلى مطالبة القريبات والصديقات بأن يكون لي طفل، وأصبحت المسألة اجتماعية بحتة، وبعد أن مرت السنوات الطوال، أصبحت أنا شخصيًا لا أرغب في الأطفال، رغبتي في الأمومة تضاءلت، ولم أعد أتمنى، بل اليوم بالتحديد أحس أن الأطفال مهزلة، الوقت قد فات، فأنت لا تعرف معاناة المرأة في مواجهة الطفل، هذا يحتاج إلى بداية الشباب، إلى امرأة في العشرين تسهر طول الليل، وتقلق عليه، ويمرض منها وتواسيه، وتضع حياتها في خدمة حياة الشرير الصغير الذي نسميه الطفل، يحتاج إلى الجهد والصحة والقدرة على التحمل والبذل والفناء في الطفل، وأنا لم أعد كذلك، وأحس أنني أحتاج إلى رجل أكثر بكثير من احتياجي إلى طفل.

وتساءلَت أي نوع من التكامل الإنساني تريد، لقد تحولت من امرأة إلى «إنسان»، ونضجت وترغب في أن تكون حرة تمامًا وعلى قدم المساواة.

* * *

قالت صديقة:

ـ انساها.

قلت:

t.me/qurssan

. أنا أكتب.

قالت:

. أنت تلف حول نفسك، تستخرجها من داخلك لتكتبها لتعيش معها على الورق، وتواصل حياتك وذكرياتك معها. انساها.

قلت:

. معنى ذلك ألا أكتب.

قالت:

. اكتب شيئًا آخر.

قلت لها:

. لا أستطيع.

قالت:

. لأنك لا تريد أن تنساها وتزعم لنفسك أنك تحاول نسيانها.

قالت:

. لقد ذهبت برحلتك هذه إلى آخر الدنيا بهدف نسيانها، وعدت تهفو إليها، وقد هجرتك بعد عودتك واختارت طريقًا آخر، فماذا تبقى؟ انساها، وإلا فمتى تستحق الإنسانة أن تُنسى؟ ومتى يستطيع الرجل أن يَنسى؟ ألست غريبًا؟

* * *

ذهبت بها إلى الطبيب الذي يعالج العقم، قال:

. حقنة زيت.

جاء دورنا، قالت:

. لا بد أن تدخل معي، تقف معي، إنني خائفة.

t.me/qurssan

دخلتُ، تمددَت على منضدة طويلة، رفع الطبيب ثوبها، أدخل في جزء من المنضدة لوحًا من الزجاج الحساس ليصور العملية، وأمسكت يدي، فتحت فخذيها، وأولج الطبيب فيها آلة معدنية قاسية لتظل مفتوحة كفوهة غريبة. كانت عيناي تنتقلان بين ملامحها وبين الرحم الذي يتعذب عذابًا هائلًا، أدخل الطبيب حقنة ضخمة طويلة ممتلئة بالزيت، وظل يضغط ويسكب ببطء شديد داخل الرحم قطرات الزيت، ويصور كيف يتلقى الرحم الزيت، وإلى أي درجة ينساب داخل القنوات الداخلية للرحم، ومضت دقائق هائلة، كانت تقبض فيها على يدي بقسوة وملامحها تتقلص وتتنهد من قسوة الألم، أخرج الطبيب حقنة الزيت الطويلة البشعة بهدوء، ثم أخرج الآلة المعدنية القاسية، استغرق كل هذا سبع دقائق هائلة، استعادت نفسها، ارتدت ملابسها، قال الطبيب لي:

. لقد تهتك جانب كبير من طموحها الأنثوي منذ زمن بعيد، والسيدة ليست راغبة في الحمل على الإطلاق نتيجة لانهيارها الداخلي الذي حدث منذ مراهقتها.

* * *

استيقظت في الصباح من نوم عميق، وجمعت نفسي، وقاد عمر العربة بقوة، وتركنا وراءنا أنطاكية. أعظم ما وهبه الله للإنسان أنه علمه كيف يسفلت الطرق، تحس بهذا وأنت تقطع الطريق على ارتفاع أكثر من مائتي قدم، تحف بك الجبال من جميع الجهات على طريق شقه الإنسان ومضى به مناطحًا الطبيعة القاسية. العربة تنطلق وأمام عينيَّ كمية هائلة من الشجر الأخضر المتلاصق الواقف في شموخ، الثابت بين الصخر. نسير فوق هضبة عالية جدًا، على يميني جبال ممتدة شاهقة العلو مكسوة بالغابات، وعلى يساري انخفاض لا قاع له. السماء ملبدة بالغيوم، الهواء منعش، رذاذ المطر ينزل فجأة ثم يكف، بعد لحظة يبدو السحاب فضيًا وقريبًا جدًا، هذا طريق لم أكن أحلم به، التجربة فوق إدراكي، مجرد السير ورؤية تضاريس الحياة، الطبيعة ليست صماء ولا متكررة. راديو العربة يقول: «آه... آه...»، ويغني ويبعث

t.me/qurssan

الشجن، ويصمت ويبدو الصمت نهرًا يغرق فيه الإنسان، ويغرق في الرؤية ويتوه بين الأشجار والصخور والهضاب. عشر قمم متجاورة مثل عشرة أهرامات أو قافلة من الجمال الهائلة متعددة الأسنمة، البيوت تحتضن منحدرات الجبل، دخلنا قرية تركية، حوالي ثلاثمائة بيت متناثرة ومتباعدة، سقوفها منحدرة حمراء وزرقاء وفضية وسط خضرة الأشجار التي تغطي الجبل، الآن الجبل يمتلئ بآلاف البيوت الملتصقة بانحداراته، وسقوفها تبدو جنونية وسط خضرة هائلة. الطريق إلى أنقرة يزداد خطورة والتواء ونحن نلف حوله وندور ونتمايل ونتمسك بالأسفلت الذي نجري فوقه، نحن نسير من «**طرسوس**» في اتجاه «**بوزانتي**» ثم أنقرة، أكثر من خمسمائة كيلومتر، ونأمل أن نصل أنقرة قبل المساء.

اتسع الطريق بعد مدينة « **بوزانتي**»، اختفت الجبال، وعلى الجانبين أراضٍ شاسعة سهلة، لونها يميل إلى الاصفرار. صوت الطريق يدوي في أذني، عربة ضخمة مقلوبة ومحطمة على الطريق، كميات من الطماطم مبعثرة، السماء صافية، الشمس ترسل أشعة دافئة، الهضاب العالية بعيدة، السهول بجواري. وتركيا متنوعة حقًّا، الناس في شرقها يختلفون عن الغرب، والذين يطلون على البحر الأسود غير الذين يعيشون بجوار البحر الأبيض. تُرى كيف كان السلاطين يحكمون هذه الأمة كلها، بل وتطاولوا على أمم أخرى؟ فقر الأهالي بادٍ، ولكن لا ازدحام هنا أو هناك، النساء والفتيات في الحقول أكثر من الرجال، مررنا بمنطقة واسعة من المستنقعات وبعدها مراعٍ تمتلئ بالأغنام، الهضاب يكسوها تراب رمادي غامق، اقتربنا من أنقرة ولم يبقَ غير مائة وأربعين كيلومترًا، والساعة الآن الخامسة عصرًا. أكلنا بعض الفاكهة داخل العربة، الراديو مقفل منذ فترة طويلة، وأشتاق إلى أن أغرق في أغنية ما تطفئ ما تفعله بي هزات العربة من الظمأ والشوق إلى ما لا أدري! تحدثت عن أشواقي ومعاناتي، قال صديقي عمر معقبًا:

- لقد لعبتَ في حياة منى دور الطبيب الصديق، عاونتَها بعد

t.me/qurssan

انفصالها عن زوجها، ولكن منذ متى تتزوج السيدة طبيبًا؟

قلت:

. لقد اجتازت جميع أزماتها عبر أجمل طريق اخترقته، كان ممتلئًا بالورد الأحمر القاني والحياة النابضة الحية، ولكن هل كان هذا كله نفاقًا منذ اللحظة الأولى؟ هل كان كذبًا متواصلًا؟ هل كانت ذكية ومخادعة إلى هذا الحد المرعب؟ وهل كنتُ أعمى لا أرى إلى هذه الدرجة؟ بالنسبة لي منذ اللحظة الأولى كنت أحبها، وما زلت مخلصًا حقيقيًا وبلا ذرة تردد، كانت عمري كله، وهذا يكفيني، ولو كنت غير ذلك لخسرت روحي ونفسي ولما استطعت أن أواصل الحياة. هل كانت حقًا تحبني؟ لن أعرف أبدًا إجابة حقيقية على هذا السؤال. كنت أسألها يوميًا خلال مئات الأيام التي مضت: «هل تحبينني؟»، «نعم أحبك». «حقًا هل تحبينني؟»، «بل أعبدك». «هل ستتركينني؟»، «لا أملك، لا أستطيع، «ما اقدرش»، لا أستطيع أن أحيا بدونك، صدقني». «هل هذا حقيقي؟»، «نعم». كان هذا الحوار يتم بيننا أربع مرات يوميًا خلال خمس سنوات كاملة، ولم أمل قَطُ، كانت تقول: «لماذا تسألني؟ هل أنت في حاجة حقًا لكي تعرف أو تتأكد؟»، «بالطبع لا، ولكني أحب أن أسألك وأحب سماع كلماتك». وكنا نضحك، وكانت تُقبّلني، الآن بدأت أشك في كيانها نفسه، هل هي إنسانة حقيقية؟ هل هي إنسانة مزيفة حتى النخاع فقدت إنسانيتها منذ البداية؟ هل تحس؟ هل هي أصلًا كائن موجود حقيقة أم وهم عشت فيه؟ لقد اختل الأمر تمامًا.

كانت منى تملك من الأرض ثروة حقيقية، لكن ماذا تعني الثروة غير رفعها فوق أحذية وملابس جديدة وأساور من الذهب؟ وهل يستطيع كل هذا أن يمس روحها المتفجرة، وجسدها الفائر، وقهرها الحقيقي؟ كان زواجها انطلاقًا من القرية إلى المدينة، الزوج جاف والجنس لديه رتيب وغير كافٍ، وعندما تفجرت بئرها غمرتها النشوة والرغبة الحارة في الحنان والتدفق، ارتوت تربتها الخصبة من كل جدول مياه اقترب منها واقتربت منه، لم تكن للحظة واحدة مستهترة، ولكنها تطابقت مع عنفوان الرغبة

t.me/qurssan

التي لا تهدأ. فالحياة في المدن الصغيرة لا تحفل بغير الرتابة والضحالة والأمسيات المنزلية ذات اللون الأصفر. وعندما تلتقي العيون الغارقة في الرقة المشحونة بالنداء. كانت الشرارة كافية لتشعل النار. ولحظة خروجي من المعتقل تعرفت عليها، وظلت بعيدة عن دائرة رؤياي، كانت حياتي تمتلئ بجفاف سنوات الاعتقال الماضية، وكانت أيامي السابقة بعيدة عن كل تفصيلات الحياة اليومية، كنت غارقًا في البحث عن الحقيقة والحلم، وظلت تقترب وتقترب وتبث الحنان والرقة والتعود، وتراكم اهتمامي بها، وأصبحت أراها مجرد إنسانة تجتذب الاهتمام، وتغري بأن أعيد صياغتها، وتحت هذا التصور الجذاب بدأت العلاقة، سبحنا في بحر متلاطم من الجنس المتواصل، استمر هذا سنوات طويلة، عوضتني الجفاف، وأغرقت كل ما بداخلي في طوفانها، وانزوى كل شيء وسيطر الجنس وتشعب الطريق، ولم يعد ممكنًا المواصلة، وأصبحنا أسلوبين وطريقين، وكان من المستحيل أن أواصل هذه الحياة. كان لا بد أن أقاوم، لا مفر من مواجهة الألم واحتماله. قلت لها قبل رحيلي: «سأعاني معاناة هائلة، وسأقوم بهذه الرحلة عبر تركيا وأوروبا لكي أبدد علاقتنا في طرق أوروبا وجبالها ووهادها، ولأبدأ حياة جديدة بعد أن جفت كل أطرافها بين ذراعيكِ، سأبدأ من جديد مواصلًا حياتي الجافة القديمة، باحثًا عن حلمي، منقبًا عن الحقيقة، طافيًا فوق تفصيلات الحياة التي لم تعد تلائمني، ولم أُخلق لها، فشلت في صياغتك لأنه من المستحيل أن تعاد صياغة طبقة ضحلة مكبلة تمرح، لا تطمح إلى النبل الإنساني ولا تتشوق إليه، ولماذا تحلم وهي قاهرة مكتفية وغير مقهورة؟». قطعت تذكرتي وهاجرت إلى رحلتي أغتسل، أمزج ألمي في قمم الجبال والوهاد والغابات والتراب، مصممًا أن أبدأ حياتي الحقيقية من جديد بدونها، وألتقي بزملائي الذين كنت أنتمي إليهم، لعلنا نشق طريقًا جديدًا يحقق الحلم والحياة الحقيقية.

* * *

اتسعت الطرق وازدحمت باللافتات، وكثرت العربات، ونحن

t.me/qurssan

نواصل السير والحديث، ومن بعيد نرى جبلًا هائلًا منقوشًا بالخضرة والأشجار القصيرة، لآلاف البيوت فوق الجبل وعلى السفح، وانطلقت العربة، وتابعنا اللافتات، نحن على مشارف المدينة، دخلنا، خضنا في شوارعها، توقفنا أمام محطة بنزين، نزلنا من العربة، العمال يغيرون الزيت ويملأون الخزان بالبنزين، كان يقف بجوارنا شاب تركي، مفتول العضلات، تعارفنا، اسمه «متين»، أشار على فندق بجوار المحطة، فندق «أوزوم»، هذا رائع، ذهب معنا وحجزنا حجرة بسريرين وحمَّام، قال:

ـ لا بد أن تتذوقوا «التندرا»، أكلة تركية، خروف يوضع في مكان مرتفع على النار الموقدة تحته، وينضج اللحم على صهد النار.

قال:

ـ متى ستحررون أرضكم من العدوان الإسرائيلي؟

قلنا:

ـ إننا نعد أنفسنا والمشكلة معقدة بسبب الإمبريالية الأمريكية.

وقلنا له:

ـ وما أخبار السيطرة الأمريكية عندكم في تركيا؟

قال:

ـ إن الأغنياء متواطئون وسعداء، والفقراء يقاومون.

ضحكنا، تعرفنا عليه أكثر.

سرنا على أقدامنا نتجول في شوارع «**أنقرة**»، مئات اللافتات المضيئة في الشوارع والطرقات وعلى الجبال وفوق العمارات وفي الوديان، وكلها تحمل كلمة «بنكازي»، «بنكازي جرانتي»، ومن لحظة البداية إلى النهاية لافتات «البنكازي يضمنك»، ويبدو أن «البنكازي» هو صاحب كل شيء هنا، الفتيات يلبسن البنطلونات دائمًا، الشباب أبرز شيء في الشوارع، يغلب على الجميع الطابع الأوروبي، في الحركة السريعة والمحددة، النظام، رجال المرور،

t.me/qurssan

رجال البوليس ملحوظون ومتواجدون في كل مكان، وأكشاك البوليس الزجاجية في كل شارع، المخبرون السرِّيون واضحون تمامًا، الجيش أيضًا موجود في الشوارع بكثرة، وتبدو قبضة الحكومة واضحة تمامًا في شوارع أنقرة، سلوك الناس محسوب وحذر، الانضباط الشديد في الشوارع، لا حركة غلط، لا ترهل. ارتكبنا خطأ صغيرًا، بعد دقيقة أوقفنا البوليس، لم نلحظ إشارة البوليس ولم نقف، بعد أن اخترقنا ثلاثة شوارع فوجئنا بالبوليس أمامنا ويحاسبنا، أبرزنا رخصة السيارة ورخصة القيادة، كاد الأمر يتطور، وفي النهاية تركونا وقالوا: «بوك»، معناها ممنوع تكرار الخطأ. واصلنا السير، أكلنا فراخًا مشوية، شربنا، الجرسون التركي نموذج حاد وعصبي ومضحك، واصلنا السير، سألني عمر ضاحكًا:

ـ لماذا الفتيات ١٦ سنة؟

قلت:

ـ لأنني في هذه السن ولفترة طويلة بعدها لم أمارس الجنس، ويبدو أنني أريد أن أصحح الموقف الآن.

ضحكنا، قال عمر:

ـ أنا مارسته في البداية مع خادمة خالتي.

قلت:

ـ وأنا أيضًا كانت البداية مع الخادمات ثم المومسات.

وظللنا نضحك ونتحدث بسعادة، عدنا إلى الفندق، ارتميت على الفراش من شدة الإرهاق، غرقت في النوم، وجاءت خلال نومي فتاة سنها ستة عشر عامًا، رفيعة بيضاء، شعرها ذهبي، ترتدي رداء أحمر، ودخلت الحلم وخلعت ملبسها، وعندما شرعتُ، قالت:

ـ أهكذا؟ ألا تُقبِّلني؟!

قبَّلتها، قالت:

ـ ألا تداعبني؟!

t.me/qurssan

وكان ثدياها صغيرين، وما إن ضممتها وضمتني وتلاحمنا حتى انتهى كل شيء بسرعة، وشعرت بالارتياح، ولكن من المستحيل أن يصبح الجنس بديلًا للعالم. عندما انهار عالمها وحلمها الداخلي وتحطم، لم يبلغها أحد أن عالمها انهار، ولم يصل إلى عقلها وإدراكها، ولكن مشاعرها امتلأت بالأنقاض، وأصبح الجنس يوحدها، وتتجمع من الارتواء ثم تعود تتبعثر من جديد وتعود ليوحدها الجنس، تعيش يومًا بيوم لتحتمل الحياة اليومية الجزئية، يعاد التوازن كل يوم، هذا يحدث عندما يغيب العقل عن إدراك معنى الحياة، معنى الإنسانية منذ لحظة ولادتها منذ ملايين السنين، وعندما لا يلحظ العقل الشقاء العام والمجرى الإنساني العام، ولا ترى العينان الأفق في استدارته والطريق الذي تتقدم فيه الإنسانية كلها، وعندما لا يتحول كل هذا إلى هموم شخصية وتلتحم أحلام الإنسان بأحلام الحياة نفسها، تصبح الحياة اليومية جزئية، ويمكن للجنس أن يلحمها ويتوازن، يدفعها إلى اليوم الذي يليه. وعندما استيقظ جسدها لم يستفز عقلها ولو مرة واحدة، وعندما التقينا حاولت أن أمس عقلها وأثير إدراكها، ونجحت مرة وفشلت مرات، ذلك لأن المعرفة ليست تلقائية، فهي طريق وتحتاج إلى معاناة وحماس، وأمل في أن تضيف للإنسان آفاقًا مادية أرقى وحياة روحية أغنى، ولا بد من مبرر لها وشوق حقيقي ونهم ورغبة، ولم يكن لديها قبل أن نلتقي رغبة وشوق إلى المعرفة، ولم يكن لديها رغبة في حياة روحية بعد أن استبدلت دون أن تعي انهيار عالمها بالحنان الوقتي المتواصل المستمر بديلًا عما تهدم، ودون أن يوقظ الهدم أشواقها الروحية، وكانت منى أنثى لديها الثروة التي تحميها من الاحتياج، ولا ترى في الرجل الحماية، فهي قادرة على حماية نفسها، كان الرجل في حياتها يعبر عن الإشباع.

* * *

استيقظت، اكتشفنا أننا نسينا إطفاء النور طوال الليل، طلبنا الشاي بالتلفون، أخذت حمَّامًا ساخنًا، الحجرة لون جدرانها وردي، بها سريران نظيفان، النوافذ من الزجاج، والحجرة فاخرة، بجوارنا

t.me/qurssan

جامع مئذنته مثل قمع السكر. انطلق صوت المؤذن باللغة العربية «المكسورة»، قمنا بجولة في المدينة. ذهبنا إلى سفارة النمسا ليحصل عمر على فيزا للدخول. وذهبنا إلى سفارة ألمانيا الاتحادية لأحصل أنا على فيزا للدخول، واشترطوا أن يرسلوا برقية على حسابي للسفارة الألمانية بالقاهرة وأنتظر أسبوعًا في تركيا حتى يصل الرد، رفضت هذا الإجراء، هذا بسبب أنني عربي. ذهبنا إلى «البنكازي»، حولنا بعض النقود إلى ليرات تركية، جلسنا في مقهى، شربنا، ذهبنا إلى مطعم، أكلنا «أدنة كباب»؛ لحم غنم مشويًّا ومشربًا بالصلصة ومعه خبز مقطع كالفطير، وله طعم حريف، وأكلنا «سوسليتش»، وهو نوع من الأرز باللبن مطهي في الفرن. الجو جميل، غدًا سنغادر أنقرة ظهرًا لنصل إلى استانبول في المساء. في اليوم التالي ذهبنا إلى سفارة النمسا، انطلقنا بالعربة، غادرنا أنقرة، وصلنا للطريق الرئيسي، ارتفع بنا الطريق وانخفض، وابتعدنا عن أنقرة مائة كيلومتر، وأصبحنا نسير بين جبلين متباعدين، أمطرت السماء مطرًا شديدًا، غسل الطريق والأشجار وقمم الجبال، وظلت سحابة رمادية تسير فوقنا، توقف المطر، واصلنا، اخترقنا مدينة «**إزميت**»، المدينة ضخمة وهائلة وتبعد عن استانبول مائة كيلومتر، الفقراء يسكنون الجبل ويزرعونه، والأغنياء ينعمون بالسفح، اقتربنا، كمية لانهائية من البيوت على جانبي الطريق، بيننا وبين استانبول ثلاثون كيلومترًا، المساكن ذات السقوف الحمراء وسط الخضرة، ظهرت الآن مآذن «**استانبول**» الشهيرة، اتسعت الطرق، كثرت اللافتات، وصلنا أول الطريق الذي يصلنا إلى استانبول، قلاع ضخمة، قصر هائل مهجور، قلعة ضخمة تمتد حول جزء من المدينة، سرنا بمحاذاتها، وصلنا إلى شاطئ البوسفور، ركنّا العربة، شاطئ يذكرني بشاطئ بورسعيد المواجه لبورفؤاد، ولكن هنا الاتساع الشديد، سرنا على أقدامنا، أكلنا ساندويتشات، مئات من الناس من مختلف الجنسيات، أمضينا نصف ساعة، عدنا إلى العربة لنقوم بجولة سريعة قبل أن ينتهي الضوء، سرنا في طرقات استانبول القديمة الضيقة، وحول مآذنها الشهيرة، وعدنا إلى البوسفور، انتظرنا المعدية الضخمة، دخلنا فيها بعربتنا، عشرات

t.me/qurssan

العربات والأتوبيسات ومئات من الناس فوق المعدية، تعبر الدردنيل، نحن في قلب المياه التي تفصل آسيا عن أوروبا، دفعنا ثمن العبور، وصلنا إلى الجزء الأوروبي من استانبول، انطلقنا بالعربة نلف حولها، في شوارعها وطرقاتها، نحن أخيرًا على أرض تركية أوروبية، بيننا وبين حدود أول دولة أوروبية (بلغاريا) مائتان وخمسون كيلومترًا فقط، توقفنا أمام مكتب الاستعلامات، أخذنا خرائط للمدينة ومواقف الفنادق، حجزنا حجرة في فندق «كليم»، تجولنا بالعربة، تهنا، ثم عدنا، أكلنا، شربنا، سرنا في الشوارع، تحدثنا مع عدد من الشباب، كانوا يرغبون في السهر على حسابنا في أحد الملاهي، تهربنا، ظنوا أننا سياح أثرياء، عدنا إلى الفندق، شربنا، كان الإرهاق قد استبد بنا، صعدنا لننام. في الصباح انطلقنا، تركنا استانبول، واصلنا السير بالعربة، وصلنا **«أدرنة»**، آخر قرية تركية، تغدينا، أكلنا شيش كباب، شربنا، استرحنا قليلًا، سرنا، توقفنا أمام آخر الأراضي التركية، الحدود، انتهينا من الإجراءات، سرنا بضعة أمتار صوب الحدود البلغارية.

باب أوروبا لأول مرة، الحدود أنيقة ومحددة، الأبواب زجاجية ونظيفة ومنظمة، ذهبنا إلى مكتب البوليس، إلى رجال الحدود، إلى البنك، سألونا وهم يفتشون العربة:

. هل معكم «هشيش»؟

ضحكنا، انطلقنا على الأراضي البلغارية، الأشجار مختلفة عن تركيا، متلاصقة، القرى متجاورة، سرنا عشر دقائق، فوجئنا لأول مرة بصورة ضخمة لـ«لينين» في أول قرية، على جانبي الطريق الأشجار شامخة، كعمالقة تحرس الطريق، تكاد أفرع الأشجار تتلاصق، وتكوِّن سقفًا أخضر ونحن نسير تحته، الطريق رائع.

نواصل السير، دخلنا مدينة كبيرة، صور «لينين» وتماثيل كثيرة، مررنا على قرى بلغارية كثيرة، الناس تتجمع كلها في الشوارع في جميع القرى، الملابس أنيقة، تمثال للأمومة يتوسط إحدى القرى، الملصقات كثيرة، الناس جميعًا خارج البيوت، اليوم الأحد يوم الإجازة، الشعب البلغاري كله يسير في الشوارع، الشباب يسيرون

t.me/qurssan

مع الفتيات في مرح، امرأة تجر أمامها عربة بداخلها طفل، رجل عجوز تجاوز المائة ويبدو أنه لا يستطيع أن يقف على قدميه، جلس بملابس زاهية نظيفة على مقعد أمام منزله وبجواره امرأة أعجز منه، لعلها تكون زوجته، تكتظ الحدائق والطرقات، القرى نظيفة، الشوارع نظيفة ومغسولة، وشكل البيوت والناس يثير المشاعر والدهشة.

العربة تنطلق، ولأول مرة المزارع الضخمة مغطاة برداء من البلاستيك، نواصل السير، المزارع مغطاة بالزجاج وكأنها أحواض هائلة، الفلاحون عائدون من الحقول، عدد كبير منهم يعودون بالموتوسيكلات، وزوجاتهم يركبن خلفهم، نواصل السير، اقتربنا من **صوفيا**، في الطريق إلى صوفيا نلف حول جبل، الطريق خيالي في جماله، الجبل الملاصق للطريق يبدو كالغابة تغطيه الأشجار، وينخفض ويرتفع وتتعرى بعض صخوره وتتغطى، الطريق حلزوني تحف به الخضرة، الهضاب مكسوة وتبدو مثل سجادة خضراء من الوبر، قبابها خضراء داكنة، الشمس تغرب عليها، وتترك ضوءها البرتقالي والأحمر فوق الهضاب، جمال لا يتصوره عقل، ثم تنحدر الهضاب ويحتلها لون ذهبي، القمح الناضج الأصفر بجوار اللون الأخضر، القمح جف واستوى، العربة تنطلق نحو صوفيا، والساعة تقترب من الثامنة، وضوء الغروب الساحر يمهد الأرض تمهيدًا رقيقًا طويلًا للظلام الهادئ المريح.

تعبر طريقًا يمر بقلب بلغاريا، من بدايتها إلى نهايتها، الحقول مزروعة ومغطاة بشبكة من السلك ليرتفع فوقها النبات ويستند إليه ويعطي محصولًا أوفر، الناس في الشوارع يحتفلون بيوم الأحد، قال صديقي إن الشعب يحتفل بنا وينتظرنا، ضحكنا، كان الاستقبال عظيمًا، بدأت نسمة البرد بعد اختفاء قرص الشمس، ما زال ضوؤها بعد ظلمة الليل، أضواء المدينة تقترب وتقترب، دخلنا «**صوفيا**»، سرنا مع اللافتات وسط المدينة، المدينة شكلها غريب، يمتزج فيها القديم والجديد، ضوء السماء يتبدد، وجدنا مكانًا خاليًا، أوقفنا العربة، تركناها، سرنا على الأقدام، لا زحام، سألنا عن الفنادق، مررنا على أربعة فنادق، لا توجد حجرة واحدة

t.me/qurssan

خاليــــة، قلنــا: فلنــذهب إلــى محطــة القطــار ونســأل مكتــب الاستعلامات هناك. المدينة مريحة وهادئة وجميلة، ولكن الإرهاق بـدأ يزحـف، النـاس والشـوارع والنظافـة تشعرك بالعراقة، ركبنا العربة، سألنا عن المحطة، سرنا وتهنا، وقفنا في ميدان صغير، رسمنا قطارًا من النوع القديم على ورقة، ضحكت مجموعة من النساء، وقالت واحدة:

. يوغوسلاف؟

قلنا:

. لا.

عرفنـــا الطـــريق، المحطـة مزدحمـة بأعـداد كبـيرة مـن جمـيع الجنسيات، وجـدنا المكتـب مغلـقًا، فـارقنا المحطـة ونحـن نشعر باليأس، بلغ بنا الإرهاق منتهاه، وقفنا في الميدان ونحن نمتلئ بالضـيق والحـيرة، واقتـربت السـاعة مـن العاشـرة، أمضـينا فـي المدينة ساعتين بلا جدوى، قال عمر فجأة:

. أنا أحس بأعراض الذبحة، أنا أعرف نفسي جيدًا.

توسلت إليه أن يؤجل الذبحة حتى نجد مكانًا ننام فيه، مررنا على خمس لوكاندات في ميدان المحطة بلا جدوى، سرنا على غير هدى، بعد بضعة أمتار توقفنا لنسأل شابًا يقف على محطة أتوبيس، لم يفهم شيئًا، سرنا بضعة أمتار أخرى، سألنا فتاة، كانت تعرف الإنجليزية والفرنسية. قالت:

. تريدون فندقًا رخيصًا أم وثيرًا؟

قلنا:

. لوكاندة رخيصة طبعًا.

ضحكت، أشارت بذراعيها وشرحت الطريق إلى أحد الفنادق، قلنا لها:

. لقد مررنا على عدد كبير من الفنادق ولم نجد مكانًا، هل تسمحين

t.me/qurssan

بالركوب معنا، وسنوصلك إلى أي مكان تريدينه بعد أن ترشدينا إلى فندق؟

ترددت لحظة ثم وافقت، ركبت في المقعد الخلفي وسط أكوام من الملابس المبعثرة والعلب المحفوظة والزجاجات الفارغة والممتلئة، قالت:

. هل تتكلمون الألمانية؟

قلنا:

. لا.

. البلغارية؟

. لا.

. الروسية؟

. لا.

. الإيطالية؟ الفرنسية؟

قلنا:

. قليلًا، ونستطيع أن نتحدث بالإنجليزية.

قالت إنها تعرف منها بضع كلمات.

كان الدكتور عمر يقود العربة في صمت، وهي توجهه بالفرنسية، يمينًا، يسارًا، على طول، سألت عن جنسيتنا، قلنا: «عرب»، قالت إنها تعرف بعض كلمات عربية: «هاتي بوسة»، «أنت حبيبتي»، «أنت جميلة»، حكت عن سلوك الطلبة العرب في صوفيا، قصص التغرير بالفتيات والخداع والكذب وأنهم يتعرفون على عشرات الفتيات ويوهمونهن بالحب، ويقولون نفس الكلام لكل فتاة، قالت إنها تزوجت وانفصلت ولديها طفل عمره أقل من سنة، كانت تضحك طول الوقت، ضحكتها رقراقة من قلب عميق صافٍ كالنبع رائق كماء الجبل، قالت:

t.me/qurssan

. أنا أضحك كثيرًا.

قالت:

. عندما أذهب إلى غرفتي لأنام أخاف أن أفكر في مأساتي.

قالت:

. إنني وحيدة وتمتلئ حياتي بالحزن.

قالت إنها تعمل، وتعمل من الثالثة ظهرًا حتى الواحدة بعد منتصف الليل، وتنهد كل ليلة، قالت قصصًا كثيرة عن تصرفات العرب بشكل أفزعني، وكانت دائمًا تضحك وتقول بالفرنسية: «أتفهمون؟» بين كل جملة وأخرى. قلت لها:

. فلنتعرف.

قالت اسمها «زورميتسيا». قلت:

. سأسميك «زوزو».

ضحكت. قلت لها:

. لأنه اسم سهل وبسيط ومصري.

سارت العربة، توقفنا أمام أحد الفنادق، سألت لنا زوزو على حجرة ولم تجد، الحجرات كلها مشغولة بسبب كثرة السياح الذين يمضون ليلتهم في صوفيا ويغادرونها إلى شواطئ البحر الأسود. تجاوزت الساعة منتصف الليل، وكنت أنا وصديقي في قمة الحرج، فما ذنبها، ولا بد أن لديها عملًا تؤديه في الصباح، وليس من حقنا أن نضع مشكلتنا على رأسها بلا مبرر، كنا قد تحدثنا وتعرفنا، كنا نرغب في ألا نحملها عبئنا، ولكننا نرغب بدرجة أكبر أن تظل معنا، ونتحدث ولو حتى الصباح. تحدثت عن تجربة زواجها الذي فشل. قلت:

. هل تشربين؟

t.me/qurssan

قالت:

- لا.

قلت:

- معنا في العربة بيرة.

قالت:

- لا.

قلت:

- ومعنا أيضًا ويسكي.

قالت:

- أخاف إذا شربت أن أنام مع أحدكما وتكون النتيجة طفلًا آخر.

قالت:

- ذهبت فتاة تورطت وحملت إلى الطبيب ليجهضها، قال لها الدكتور: «كان يجب أن تحترسي». قالت الفتاة للدكتور إنها مرة واحدة فقط.

ضحكنا. سألتها:

- هل تريدين أن تأكلي؟

رفضت شاكرة، كانت فقط تدخن، كانت طوال الوقت تشكو من الطلبة العرب والمصريين، وكأنها لأول مرة رأت أصدقاء تفضفض لهم. اقتربت الساعة من الواحدة صباحًا، ونحن نبحث طول الوقت، كانت ضحكاتها تثير في العربة الاطمئنان والدفء والحنان والصداقة، وتهزم «الذبحة» والإرهاق والضيق والتوتر، هي مصممة ألا تتركنا ننام في الشارع، بذلت محاولة أخرى، تحدثت بالتلفون إلى فندق في الجبل الذي يحيط بصوفيا، وعادت إلينا وقالت إنها وجدت حجرة، والمشكلة الآن أن نصعد

t.me/qurssan

الجبل، ولا مفر من أن تذهب معنا فمن المستحيل أن نعرف الطريق، وبعد ذلك نعود بها إلى «السنتروم»، وسط المدينة حيث تسكن، ثم نعود بعد ذلك وحدنا إلى الجبل. قالت:

. طبعًا ستفقدون الطريق وتعودون إلى منزلي.

كانت تواصل ضحكاتها، وهي تتحدث طول الوقت. سرنا في الطريق إلى الجبل الملاصق لصوفيا. ارتفع بنا، سرنا في عدد من الشوارع، كانت تُعلِّم لنا الشوارع، هنا تمثال «ديميتروف»، هناك لوحة خاصة بالشيوعيين، هنا ترام رقم ٥، على ناصية هذا الشارع الذي سننحرف منه كشك بوليس ثم طريق فيه تصليح ثم تصعد، وسرنا حتى وصلنا، تركناها في العربة ودخلنا لنحجز، أخذنا وقتًا طويلًا وفتاة الاستقبال تفحص الباسبور وتحول العملة، اقتربت الساعة من الثانية صباحًا، وأخيرًا عثرنا على مكان ننام فيه، عدنا لزوزو في العربة، قالت:

. هيه... هل وجدتم مكانًا؟

كنت أفكر لماذا بذلت هذا الجهد كله، لا تريد نقودًا ولا سهرًا ولا جنسًا، هل لأنها إنسانة مهزومة ووحيدة وتحاول أن تجد مخرجًا تواجه به وحدتها، أم أن داخلها إنسانية غزيرة وصدقًا وأملًا؟ تركت لديَّ انطباعًا لن يُمحى، بددت بروحها وضحكاتها الإرهاق واليأس. قلت لصديقي:

. لقد تعلمت شيئًا، ومنذ الآن سأحاول أن أكون عونًا أكثر، إنسانًا أكثر، لقد أضافت إليَّ هذه الفتاة.

كانت تلبس بلوزة سوداء وجونلة داكنة بها مربعات بنفسجية، الجونلة قصيرة، ملابسها بسيطة، وجهها مضيء بابتسامة نبيلة، شعرها أسود قصير تسريحته بسيطة، عيناها عسليتان واسعتان، وجهها مريح وطيب وإنساني، تكتسي ملامحها بروح تضفي عليها جمالًا من نوع خاص.

t.me/qurssan

عزيزتي زوزو،

وصلت القاهرة منذ فترة وكانت مفاجأة لأصدقائي، احتفلوا بي، وطوال عشرة أيام كنت أشرب يوميًا معهم حتى الثانية صباحًا، أحكي لهم عن الأيام التي قضيتها فوق جبال الألب في «إنسبروك»، وعن «بينالي فينيسيا»، وعن مأساتي الصغيرة مع «كارولين»، الفتاة الألمانية، وعن النظام الصارم في برلين، وعن فيينا، وعن الرحلة داخل العربة، وعن زوزو، وكانت دائمًا قصة زوزو ولقائي معها البسيط في بداية الرحلة هي القمة في حكاياتي، الجميع هنا يحبون زوزو. عملي في الجريدة يسير على ما يرام، ليس كما ينبغي، ولكنه أفضل من فترة ما قبل رحلتي. زوزو، كيف حالك؟ هل تواصلين عملك المرهق؟ ألا تفكرين في زيارتنا؟ كيف حال ابنك الذي لم أره؟ وصلتني رسالتك التي أرسلتها لي في برلين ولم أتسلمها هناك، صديقي أرسلها إلى القاهرة، قال إنها كانت تفوح منها رائحة البرفان، وعندما وصلتني كانت الرائحة قد ضاعت، وبقيت كلماتك وحنانك وسؤالك عني. كتبت إلى صديقنا الدكتور عمر، ولم أتسلم ردًا حتى الآن، أتذكرك دائـمًا، التقيت بصحفي بلغاري، أحس أنه يجب أن يكون صديقي... أحببت بلغاريا، صوفيا، صوفيا، صوفيا، هذا حقيقي، هذا بسببك، إنني أواصل الكتابة عن هذه الرحلة، وعندما سأنتهي سأرسل لك ما كتبته، وسأجد طريقة لترجمته لك. هل يسعدك هذا؟ اكتبي لي.

* * *

عدنا بالعربة لتوصيلها إلى منزلها، وهي مشغولة طول الوقت بأن تصنع لنا من علامات الطريق ذاكرة تذكرنا بطريق العودة، قلقة طول الوقت علينا، تخشى أن نتوه. قلنا لها:

. لا بد أن نلتقي صباح غد.

قالت:

. هل حقًا تريدان ذلك؟

t.me/qurssan

قالت:

- ليس لديَّ عمل في الصباح، فلنلتقِ في العاشرة صباحًا في «السنتروم».

كان عمر سعيدًا إلى أقصى حد. عدنا سعداء متفتحي القلب لصوفيا الرقيقة الحانية، لزوزو، أخذت معها عواطفنا. تساءلنا: لماذا فعلت هذا كله؟ أبوها ميت وكان أستاذًا في الجامعة، وأمها أيضًا ذهبت، وهي تعيش وحدها مع ابنها، تزوجت وفشلت، كان غيورًا وسخيفًا، تعمل ساقية في مقهى «سنيك بار» في «السنتروم»، تمضي وقتًا مرهقًا في عملها. الرجل في رأيها كذاب مخادع، يريد كل لحظة فتاة مختلفة، ولا يريد أن يقيد نفسه بمسؤولية، كانت تتوارى في المرح، مرحها هرب من الحزن القاتم المترسب. كنا نتحدث أنا وعمر داخل حجرتنا، خلعنا ملابسنا وارتمينا على الفراش منهكين، كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحًا، قلت له:

- أرجوك لا تلمسها في خيالك، دعها لي الليلة أحتضنها، فقد عزفت بأوتارها على أوتاري، وبأحزانها وفشلها على حزني وفشلي وإحباطي، وبوحدتها على وحدتي.

كان إرهاق اليوم قد هدني، ونعومة الفراش تجتذب النوم، ولكن ما حدث في اليوم من إثارة أبعدني عن الاستغراق في النوم. ولكن هل أستطيع أن أحتضنها قبل أن أنام؟ كانت منى قد انزوت في قلبي، هزمها صدق زوزو وإنسانيتها وشفافيتها، في أول مرة فشلت مع منى، ودربتني على النجاح، وأصبحنا جسدًا واحدًا نتدفق معًا وتتداخل كل ذرة منا، ولكن المرأة من طول انتمائها لظروف القهر على مدى آلاف السنين قد شوهت، وخصوصًا المرأة المصرية، امرأة الطبقة الوسطى. كانت منى طوال الوقت تهواني وتهوى القماش والأردية والملابس، ترغب في حياة اجتماعية براقة، مهما كان جوهرها مزيفًا وليس حقيقيًا، كانت منى محطمة، وانحط بها تحطيمها إلى درك الخداع والزيف والكذب، ولكنها كانت أحلى تجربة وأعمق علاقة إنسانية وعاطفية عشتها.

t.me/qurssan

في البداية كانت رحيق الحياة ومعنى الدنيا. تذكرت قبل أن أستغرق في السبات ملامحها السمراء، شفتيها، حنان اللحظة واندماجها وأشواقها التي لا تنطفئ أبدًا، كل هذا سحقه الزيف، هل زوزو هي الأخرى مثلها، عندما تخلع قماشها وتحتضنني؟ بالقطع سأجد اكتشافات أخرى، وأغوارًا إنسانية عذبة أتشوق إليها، وألحظ ما ينبئني بأنني سأجد كنزًا من الصدق. اجتذبني النوم، وأنا بين طيات ذكرياتي، دون أن أحتضن شيئًا.

***

في الصباح الباكر استيقظ عمر، مبكرًا على غير العادة. كنا كالعصافير نرفرف من الفرح ونحن نتحدث، استحممنا، ذهبنا إلى العربة، كنسنا العربة بأيدينا من أعقاب السجائر والعلب الفارغة والورق الممزق. ارتدينا ملابس نظيفة مكوية، لاحظت نفسي قصيرًا أسمر، وكان صديقي عمر وسيمًا طويلًا مفتول العضل، قلت له:

. لقد كسبتَ الجولة.

وضحكنا، كنا نتسابق في ترتيب أنفسنا، فارقنا الفندق، انطلقنا من فوق الجبل وصوفيا تحتنا. كانت المدينة يشمخ فوقها الجبل وتبدو رابضة تحت قدميه، مستسلمة وقوية وجميلة. كانت صوفيا بالأمس ونحن نصعد الجبل مع زوزو رائعة وحبيبة، وأضواؤها من فوق الجبل تخطف الأبصار، ويبدو منظرها مهيبًا وعظيمًا. انطلقنا حذرين من أن نفقد الطريق، وصلنا، ركبنا العربة، سرنا في الشارع والدقائق لا تقترب، قلت:

. ترى ماذا ستلبس اليوم؟ بنطلونًا؟

قال عمر:

. فستانًا جديدًا وربما تأخرت عند الكوافير.

مضت خمس دقائق بعد العاشرة، ولمحها وهي تعبر الشارع متجهة إلينا، وكانت ترتدي نفس ملابسها بالأمس، سعيدة وهي

t.me/qurssan

تلتقي بنا، تبادلنا السلام والتحية، اكتشفت أنها طويلة وضوء النهار قد أضاء ملامحها بالجمال والروعة. قالت:

. هل نمتم جيدًا؟

سألت:

. هل عرفتم الطريق ولم تضيعوا في مفارق الطرق؟

وضحكت. قلنا:

. فلنذهب لنشرب قهوة أولًا.

قادتنا إلى مقهى تحت الأرض، ووجدناه مقفلًا، قادتنا إلى مقهى آخر، شربَت عصير برتقال، قالت إنها ستمضي الوقت معنا حتى الثالثة إلا ربعًا لأنها لا بد أن تتسلم عملها في الثالثة تمامًا. قلنا:

. حسنًا.

قالت:

. وأنتم؟

قلنا:

. سنغادر صوفيا حوالي الساعة الثالثة أيضًا، وسنمضي الوقت كله معك.

قلت:

. فلنقم بجولة داخل صوفيا.

شربنا القهوة، تحدثنا عن الدين، قال عمر إنه مؤمن ولا يأكل لحم الخنزير، قالت إنها لا تؤمن، قالت إن لحم الخنزير جميل جدًا، وكانت تتحدث بالفرنسية وكنا نفهم ما تقول، ولكننا نعجز عن التعبير بالفرنسية، حاول عمر أن يشرح لها وجهة نظره، ولكن اللغة لم تسعفه، وكانت تضحك، صممت أن تدفع هي ثمن قهوتنا، سألتنا عن الزوجة المصرية: هل لا بد أن تغسل قدَمي زوجها ولا

t.me/qurssan

تأكل معه؟ وهل نحن نجمع أكثر من زوجة؟ ضحكنا، قلت لها:

. الدكتور عمر له ثلاث زوجات فقط.

وحكى لها عمر أن هذا كله كان منتشرًا منذ عشرات السنين، وأن هناك نوعًا من التكافؤ بين الرجل والمرأة. قالت إن المرأة المصرية أحسن حظًّا من الأوروبية، ففي أوروبا يجب أن تعمل طول النهار ثم عندما تعود إلى البيت تواصل عملها أيضًا في البيت مع الأطفال، وتنظيم المنزل، وهي تشقى أكثر من الرجل الأوروبي كثيرًا، قالت:

ـ لقد تغير الرجل في هذا العصر، لم يعد يطيق المسؤولية والالتزام، وينحو نحو الحرية والأنانية، فهو يريد أن يصادق فتاة دون مسؤولية، ولا يريد أن يتزوج، ويحب أن يظل حرًّا.

قالت إن الرجل الأوروبي أناني خلقه العصر المتوتر الحالي، وترك المرأة الأوروبية تعاني الوحدة، قالت:

. لا أحد يستطيع، وخصوصًا الرجال، أن يتصور «المرأة الوحيدة» التي تعمل وتعيش وتسكن وتنام وحدها، ثم تستيقظ لتغرق في العمل وتظل هكذا وحيدة، إن هذا ضد تركيبها وضد طبيعتها، فالمرأة تحتاج دائمًا إلى مساندة، إلى حنان، إلى زوج، إلى صديق.

قالت:

ـ أنا أهرب من البيت، أهرب من فراشي، أهرب من وحدتي بالضحك والضحك الدائم... ولكن الحياة قاسية بطريقة لا يتخيلها الرجل.

دخلنا حديقة الحيوان، بدأنا بالثعابين والتمساح، وسألت:

. هل يوجد تماسيح في النيل؟

ذهبنا إلى الحمار ووجدناه يلاعب أنثاه، وظلت تضحك وتعلق، قالت إنه لا يخجل، حكت عن تيس كان يلاعب عنزة وهي تهرب منه وتجري وتضع مؤخرتها في الحائط هربًا من اللعبة (وكانت

t.me/qurssan

زوزو تقلدها وهي تحكي وتضع مؤخرتها في الحائط)، قالت:

ـ ظلت تهرب ثلاث مرات وفي الرابعة استسلمت له.

وقالت تبرر ذلك إن العنزة كانت في منتهى الخجل لأن عددًا كبيرًا من المتفرجين كان يقف ويتفرج، وعندما انفض الناس ارتضت الأمر. دخلنا كنيسة صوفيا الكبرى، من الداخل الرهبة والتماثيل والاتساع والضخامة، اشترت زوزو شمعتين ووقفت أمام العذراء وأشعلت الشمعتين، وقالت:

ـ من أجل أن تستمتعوا برحلة طيبة.

سرنا في شوارع صوفيا، المدينة مزيج من الطابع الشرقي والأوروبي، وما زال طابع القهر التركي ملحوظًا، زرنا متحفًا صغيرًا به آثار الصراع والمعارك ضد الأتراك، شاهدنا حائطًا قديمًا متبقيًا من إحدى القلاع التركية، أشارت بيدها: «هذا مبنى الحزب»، «وهذا مبنى الإذاعة»، «وهذه كلية الاقتصاد»، «وهذا تمثال «لينين» الضخم في قلب العاصمة»، قالت:

ـ أنا أحب «لينين»، ولكني كنت أفضل أن يكون مكانه بطلنا القومي «ديميتروف».

قالت إنها تعرف بطلنا القومي عبد الناصر، وكانت تتابع معاركه ضد الاستعمار، قالت إن وفاته خسارة لا تعوض، مثل «ديميتروف»، كان الاثنان مناضلين في منتهى الصلابة ضد الاستعمار، قالت إنها تعتقد أن مصر والبلاد العربية ستتقدم أكثر، ولا بد أن تهزم الصهيونية وتحقق تقدمها إلى الأمام، قالت إنها قرأت عن النيل ومصر والأهرامات وهي طفلة في المدرسة، وتهفو إلى أن تراها، قالت إنها تحسدنا لأننا نقوم برحلة عظيمة داخل كل أوروبا وتتمنى أن تشاركنا فيها، ثم نظرت إلى ساعتها، قالت:

ـ يا خسارة الوقت يمضي بسرعة!

وهي لا تريد أن تتركنا ولكن ما العمل؟ وواصلنا السير، قلنا:

t.me/qurssan

ـ فلنأكل في مكان تختارينه يكون له الطابع البلغاري والطعام البلغاري.

قالت:

ـ ويكون رخيصًا طبعًا.

وضحكنا، سرنا وهي توجه عمر وتقول: «يمين»، «شمال»، «على طول»، بعد أن علمناها هذه الكلمات بالعربية. وسارت العربة، وتوقفنا، ودخلنا مطعمًا صغيرًا، سقفه من الخشب البني، مدخله مزين بمفارش منقوشة ومزخرفة، الجدران محلاة بمصنوعات شعبية، المنضدة على شكل طبلية مستديرة، الكراسي من الخشب المنقوش، الموسيقى والغناء البلغاري يملآن المكان، وطلبنا كفتة بلغاري، قطعت زوزو قطعة بالشوكة، ووضعتها في فم عمر، ثم فعلت ذلك معي أيضًا، كانت رقيقة جدًا. كان الوقت يلتهم اللحظات القليلة الباقية. وكلما نظرت إلى ساعتها تقول: «أوه، ستذهبون وتتركونني وحدي، خذوني معكم، لو أستطيع أن أذهب معكم!»، ركبنا العربة، وبدأت تقول: «يمين»، «شمال»، «على طول»، وصلنا إلى محل «سنيك بار»، جلسنا، دخلت وارتدت ملابس العمل، الجونلة البرتقالية والبلوزة الزرقاء، طلبت لنا بيرة، اشترت لنا سجائر بلغارية، دخلنا دورة المياه، غسلنا وجهينا، رفضت أن ندفع شيئًا، تركنا لها عنواننا، أخذنا عنوانها لنكتب لها، شربنا، ودعناها بحرارة حقيقية صادقة، قبل أن ننطلق قالت:

ـ سيروا على اليمين دائمًا على طول وستجدون أنفسكم خارج صوفيا.

ودعناها مرة أخرى، انطلقنا يملؤنا التوتر، توتر اليوم كله، كان المطر ينهمر ونحن نسير، وما زال صوتها يملأ أذني: «على طول»، «يمين»، «على طول»، خرجنا من صوفيا، وأصبحنا في الطريق، يمين، يمين، على طول، مرة واحدة، إلى اليسار، وانطلقنا صوب الحدود اليوغوسلافية.

* * *

t.me/qurssan

العربة تنطلق، تمتلئ جوانحي بالفرح ولكني حزين، وكان الحزن غلافًا يمنع فرحي الداخلي من أن يدمر كل شيء. أنا حزين حقيقة، ولكن جوهري يصخب بالفرح وأطير في فراغي وأحلق. واصلنا السير، لم نتحدث، كنا في منتهى الامتلاء، وصلنا الحدود البلغارية. خامر موظف الحدود الشك بالنسبة لباسبور عمر، ظل ينظر إليه بالعدسات المكبرة، أمضينا وقتًا طويلًا، الحدود مبانٍ أنيقة زجاجية، تصورت أنه قد يعيدنا إلى صوفيا، إلى زوزو، أو يحتجزنا، بدأت لسعة البرد، العداد ٥٥٤٩٣، أخيرًا وافقوا على أن نجتاز الحدود، دخلنا، الثامنة مساء، سرنا على الأراضي اليوغوسلافية، كان الضوء قد بدأ يخفت، بعد خمسة كيلومترات وصلنا إلى موتيل، قررنا أن ننام في هذا الموتيل، وجدنا مكانًا، نمنا، حلقت ذقني في الصباح، سرنا، توقفنا، ركب معنا شاب «هيبي» إنجليزي، قال إنه يرغب في الذهاب إلى «نيش»، على مقربة من مدينة «نيش» أوقفنا موتوسيكل بوليس، كنا قد تجاوزنا السرعة المقررة، دفعنا الغرامة، واصلنا، دخلنا عدة أنفاق تخترق الجبال، الأنفاق مسقوفة ومظلمة ومنحوتة في قلب الجبل، ثمانية أنفاق أو أكثر، بعضها طوله حوالي كيلومتر يخترق الجبل، الجبال مغطاة بالغابات، يتسع السهل، الحقول الخضراء والصفراء، الذرة ونبات مثل القمح محصود ومكوم، توقفنا في « **نيش**»، وضعنا زيتًا جديدًا في موتور العربة، سرنا، وصلنا مشارف بلغراد، بنايات ضخمة، بجوارها بيوت صغيرة ذات أسطح حمراء، كمية كبيرة من البنايات المتشابهة، نوافذ العمارات كلها من الزجاج، بعضه لونه أزرق، وأخضر، الشرفات كعادة أوروبا تطل منها الزهور والخضرة. دخلنا «**بلغراد**»، الأسهم تقودنا إلى شوارعها الرئيسية، وصلنا «السنتروم»، وسط المدينة، ميدان به تمثال، فارس يركب حصانًا، درنا حوله، توقفنا أمام مقهى، جلسنا، التقينا لأول مرة في أوروبا بشحاذ، ورجل آخر معتوه، غازلنا بائعة الجيلاتي، ضحكت، أمضينا ساعتين، أكلنا وتجولنا على أقدامنا في الطرقات، لم تدخل المدينة قلبي.

ركبنا العربة بعد أن استرحنا. فارقنا بلغراد، سرنا في الطريق إلى زغرب، لن نستطيع قطع المسافة كلها اليوم، الساعة الآن

t.me/qurssan

الخامسة، قررنا أن نصل فيينا غدًا.

انفجر أحد إطارات العربة، توقفنا وغيرناه، واصلنا، توقفنا قبل أن نصل زغرب، نمنا في أحد الموتيلات على الطريق، الأسعار مرتفعة، في الصباح واصلنا، أفطرنا في «**زغرب**» سجقًا ساخنًا، شربنا قهوة، كتبنا عددًا من الرسائل، سرنا، هدفنا مدينة «ماريبور» اليوغوسلافية على مقربة من حدود النمسا، أسفلت الطريق قديم ومهترئ. قال عمر:

. أشعل لي سيجارة.

أشعلت سيجارتين لي وله، ابتسم، عمر يحيرني، عندما التقيت به في بيروت قال إنه كان مترددًا أصلًا في القيام بهذه الرحلة، ولكن وصولي من القاهرة حسم تردده. قال إنه يستحق هذه الرحلة، قال إنها أول إجازة له منذ ثلاثة أعوام، قال:

. كنت أعمل مثل الحمار.

قال:

. أريد أن أرى أوروبا وأنطلق قبل أن يذوي شبابي، وأتذوق النساء الأوروبيات، منذ أن تزوجت لم أدخل تجربة أخرى.

قال:

. قلت لزوجتي بصراحة: سأتذوق الأوروبيات.

ولكن عمر يحيرني: ماذا يريد بالضبط من أوروبا؟ تلقى عمر صدمات حقيقية زلزلته هذا العام، واتجه بقوة ناحية الدين، واقترب من التصوف، رأى الموت بعينيه وأحس بضآلة الحياة والخوف منها والرغبة في الأمان، عالمه يحيط به الخوف، الخوف من الموت، الخوف من الطرد من عمله في قطر بسبب نزوات رؤسائه، والخوف من فقدان المرتب الضخم والعودة إلى مرتبات القاهرة الضئيلة وطحن الحياة، الخوف من عجلة الحياة الحديدية أن تدور في اتجاه يعجن المستقبل ويشكله بقسوة، أين يجد الأمان والمرفأ والشاطئ الذى يحميه من تلاطم هذه

t.me/qurssan

الأمواج كلها، بعد أن فقد الجرأة والاقتحام والمغامرة؟ كيف يحتفظ بالإقدام، وقد أصبح أسيرًا لكل هذه المخاوف، وابنه قد اقترب من السابعة، وأصبح الرسو على شاطئ أمرًا ضروريًا، والدين هو أقرب الموانئ وأضمنها؟ وطالما لقنه أبوه تعاليم الدين ووقتها كان عمر شابًا، كان متمردًا، رفض هذا كله، ولم يكن مثقلًا، وكان يسير طول الشوارع وعرضها على قدميه، وكان يتناقض مع أبيه ومع الحياة، وكان يهفو إلى الفن والرسم وإلى السينما والثقافة، وكل أصدقائه بالصدفة فنانون وكتاب، بثوا فيه، وعمقوا هذا الطريق، رغم أنه وقتها كان يدرس الطب، وعندما حصل على البكالوريوس كان هذا كما تصور آخر المطاف ليتفرغ بعد ذلك للفن، ولكنه واصل الماجستير هربًا من ظروف أخرى، وحصل عليه، وضمر طريق الفن ليتسع طريق العلم والاكتشاف، وأغرب شيء أنه يؤمن بالتجربة المادية في أبحاثه، ويرتب نتائجه وبحوثه على تطورات مادية ملموسة داخل معمله، ولكن ما إن يخرج من معمله حتى يصبح أسيرًا للقيم الاجتماعية القديمة والأفكار الميتافيزيقية، ويحيا بوجدانين، هو العالم المجرب وسط بحر متلاطم من التخلف والبدائية، ولا مفر من التمزق بين معمله والحياة اليومية، وهي مأساة النبوغ العلمي في بلاد تزخر بالأمية. ذهب وهج الزواج والإشباع والتفوق والذكاء، وتآكلت وانتهت كل رغبة في ممارسة الحياة الثقافية العامة وضمرت، دمر التناقض والخوف كل شيء، وبعد أعوام طويلة من الهجرة والعمل في قطر حصل على إجازة، على وقفة، وبكل أثقاله التي يجرجرها ساق نفسه إلى أوروبا، لعله يجد الإجابات على أسئلته، هل يعود مرة أخرى إلى أقرب مرفأ وينضوي تحت لوائه، ويغوص أكثر وأكثر في طمأنينة الدين ليتوازن مع الخوف، أم يجد حلًا آخر تقدمه له أوروبا؟

كانت سيجارته قد انتهت، وألقى بها من نافذة العربة، والعربة تنتهب الطريق، اخترقنا «ماريبور»، وتوقفنا عند آخر الأرض اليوغوسلافية، وقبل أن نجتازها ركنًا العربة، دخلنا المطعم الملاصق لمبنى الحدود، أكلنا، شربنا ثلاث زجاجات من البيرة اليوغوسلافية، قال عمر:

t.me/qurssan

- إنها أقوى بيرة شربناها حتى الآن.

قال:

- أشعر بدوار في رأسي لأول مرة.

قال:

- لا أستطيع أن أقود العربة الآن.

وضحك، تحدثنا، غيرنا بعض النقود إلى شلنات نمساوية، اتفقنا أن نمضي أسبوعًا في فيينا، على الحدود، المكان نظيف، وممتلئ بالخارجين والداخلين، عدد كبير من الشبان «الهيبيز» يقفون، ويرغبون في الركوب مع أصحاب العربات ليجتازوا معهم الحدود، بداخلهم جنون الترحال والتنقل، الشباب والفتيات والأعمار الغضة المجنونة، الوجوه تكسوها الصحة والقوة والإصرار، البنطلونات تمتلئ بالأجساد الرخصة الحلوة ذات الرحيق، وعيوننا تلتهم وتتحرق شوقًا وعجزًا عن الوصول. ركبنا العربة، توقفنا أمام الحدود اليوغوسلافية، ختموا الباسبور، أشار الضابط بيده، لم يستغرق اجتياز الحدود اليوغوسلافية أكثر من نصف دقيقة، سرنا بضعة أمتار، توقفنا، هذه الأمتار ليست يوغوسلافية ولا نمساوية، لا معنى لها، ولكن لا بد من اجتيازها، توقفنا أمام النمساويين، قال رجل الحدود النمساوية ضاحكًا:

- أرجو ألا تكون معكم قنبلة لـ«جولدا مائير».

ألقى بعينيه داخل العربة، ختم الباسبور، وانطلقنا داخل الحدود النمساوية، الساعة السادسة مساء.

تتجمع البهجة والفرحة والشوق عند أول لحظة وأول أمتار جديدة، بعد أن نخترق الحدود، أي حدود، وكأنك ستجد كل ما يمتلئ به وجدانك لحظة اختراقك للحدود، ولعلها فرحة الانطلاق والتصريح لك بالاجتياز. انطلقت العربة بعد أن انتهت من طريق يوغوسلافيا الطويل، أمامي الكتاب الممتلئ بالخرائط والطرق وأسمائها، عيني على الطريق الذي نختاره والمدن التي تقع عليه،

t.me/qurssan

أراقب العربة وهي تخترقه حتى لا نتوه، الطريق في النمسا رائع، الشمس تبعث ضوءها، والقرى تبدو مختلفة تمامًا، الحياة أكثر رقة ورخاوة، الطريق ناعم، الحقول على جانبي الطريق، وقد اجتزنا في الأيام الماضية تركيا وبعض البلاد الاشتراكية وننطلق الآن على الطريق الرأسمالي، الأيام الماضية مزدحمة بمئات التفصيلات والملاحظات والمقارنات، عشرات من مشاعر الدهشة والتوجس، توقفنا أمام أحد المحلات في ميدان إحدى المدن الصغيرة، ضبطنا إطارات العربة، انطلقنا، الجبال والهضاب والغابات على جانبي الطريق، الوهاد السحيقة خضراء، العربة تمضي، الشمس نحن نسابقها ونتشبث بضوئها، ونحاول أن نكسب دقائق من الضوء والزمن، الضوء يملأ الأرجاء، اجتزنا المدن والقرى، اقتربنا، أشعلنا سجائرنا، اقتربنا أكثر، اتسعت الطرق، الأسهم البيضاء المرسومة على الأسفلت، اللافتات الضخمة على الطريق إلى فيينا، لافتة هائلة ضخمة جدًّا عليها إعلان لـ«الكوكاكولا».

***

قالت منى:

ـ تعالَ نذهب.

ذهبنا، خلعنا ملابسنا الخارجية، وقفت فوق الميزان، سجلت وزني، قال الدكتور:

ـ كل جلسة بخار ومساج ستفقد من وزنك كيلوجرامًا كاملًا.

وقفتُ داخل الحزام الكهربائي، الحزام يحيط ببطني، يتحرك الحزام حركة سريعة مرعوشة فوق بطني وظهري، دخلنا حجرة، صندوقان من الخشب، فتحتُ صندوقًا ودخلتُ فيه، بداخله مقعد، جلستُ، أقفلتُ الصندوق، يبرز منه رأسي فقط، جسمي كله داخل الصندوق، ومنى داخل الصندوق المجاور لي، ونحن شبه عرايا، بعد لحظة فتحت السيدة صنبور البخار، بدأ في التسرب داخل الصندوق المحكم هواء لافح ساخن، امتلأ الصندوق

t.me/qurssan

بالحرارة الشديدة الخانقة، تساقط العرق المتصبب من صدري وظهري، ظللت أتصبب داخل الهواء الملتهب دقائق طويلة، أقفلت السيدة الصنبور، خرجتُ من الصندوق ولففتُ جسمي كله بالقماش، تمددتُ على منضدة حتى كف جسمي عن إفراز العرق، ومنى مثلي ممددة على منضدة بجواري، سكبَت السيدة قطرات من الزيت على ظهري وصدري ودلكت جسمي كله، تشرب جسمي بالزيت، تذكرت عملية التحنيط عند قدماء المصريين، وضعَت السيدة قليلًا من البودرة على جسمي ثم دلكت الجلد واللحم. قالت منى:

. ألم تجرب المساج وحمَامات البخار من قبل؟

قلت:

. لا.

وبعد وقت طويل قالت منى:

. تعالَ نذهب مرة أخرى، لقد ترهلنا.

قلت لها:

. لم يعد يجدي شيء.

* * *

توقفنا أمام أوبرا «**فيينا**» العريقة، الشوارع رائعة، المحلات بملايين الجنيهات، الأضواء، أبراج الكنائس، المدينة تفوح منها رائحة العراقة والثراء والفن (مدينة الموسيقى والرقة حقًا)، هنا يلتقي العالم، البوليس غالبيته من النساء، أكلنا أكلًا رخيصًا، بحثنا عن فنادق بلا جدوى، توقفنا أمام شاب يبيع الصحف والمجلات له ملامح مصرية، تحدثنا، اسمه أحمد، طالب جاء ليعمل في الصيف ويكسب، ملامحه يبدو عليها أنه وحيد وغريب، وجدنا آخر على ناصية أخرى يلعب نفس اللعبة (بائع صحف)، الجميع مهزومون وغرباء ومهددون. تعرفنا على جلال، متوازن أكثر، سيتزوج صديقته النمساوية بعد شهور قليلة، يعيش هنا منذ

t.me/qurssan

عامين، يرغب في التخلص من رتابة الحياة المصرية وضحالتها. استمعنا إلى قصص كثيرة، السرقات الصغيرة والكبيرة والنصب وبيع الباسبورات والتغرير بالفتيات والكذب في كل اتجاه، المصريون في النمسا بضعة آلاف، والبعض يتعرض لدمار حقيقي ويسبب أضرارًا بالغة للذين يجالدون الحياة بشرف وصعوبة.

وجدنا فندقًا، وضعنا الحقائب، عدنا لنسير مع جلال في شوارع المدينة. الفتيات في أوروبا عندما يبلغن السادسة عشرة يمارسن الجنس بحرية، وعندما تتزوج الفتاة تكف تمامًا وتصبح متفانية، بعكس الشرق، الفتاة تنقلب بعد الزواج. المرأة الأوروبية موقفها صادق من الحب والصداقة، بعيدة عن الكذب والزيف والخداع، ولها موقف محدد من العمل ومن احتمال الحياة ومواجهة المصاعب ومشاركة الرجل في كل مجال. واصلنا السير، أكلنا سجقًا ساخنًا، سرنا في شارع جانبي، شارع المومسات، داخل الشارع وعلى الجانبين يقفن، المومس أنيقة ولكنها تبرز مفاتنها بطريقة فجة، ولكنها أنثى مدربة تدريبًا عاليًا، ربما كانت تختزن قدراتها في أعماقها الخاصة.

* * *

كانت منى تنام في الحجرة المجاورة لمخدع أخيها الجبار وزوجته، وفي كل ليلة كانت ترى السيطرة الكاملة لهذه السيدة على زوجها، وتسمع صوت قدميه بعد منتصف الليل وهو ذاهب يستحم ويستعد لصلاة الفجر، وترى من ثقب الباب زوجته تتمخطر وسط المنزل بملابسها الداخلية الزاهية الفاقعة. كانت منى الشابة الصغيرة المتفتحة للحياة تمتلئ بالدهشة والغرابة، وفهمت جيدًا أن أبسط إنسانة في النساء جميعًا قادرة بهدوء على استيعاب أعتى الرجال، كان هذا درسها الأول في عالم النساء والرجال، ولقد مارسته في بداية الأمر مع زوجها ومع جميع محبيها.

* * *

اخترقت لسعة البرد أجسادنا، نحن ننتهي من السير في شارع

t.me/qurssan

المومسات، اقتربت الساعة من الواحدة، الشوارع متألقة في الضوء، سرنا، ذهبنا إلى الفندق، نمنا في الحال من إرهاق السير والتجوال.

في الصباح ذهبنا إلى قصر «هابسبورج»، اجتزنا البوابة. الحديقة تمتلئ بالزهور وتتفرع منها الطرق إلى غابة ضخمة ملحقة بالقصر، في آخرها نافورة تحف بها التماثيل، دخلنا القصر، كان الإمبراطور يمضي به ثلاثة أسابيع في السنة، اسمه «القصر الصيفي»، زرنا الحجرات الخاصة بالإمبراطورة القوية «ماريا تيريزا»، حجرات بيضاء محلاة بالذهب، القصر قطعة فنية نادرة، بعض قاعاته تستخدم حتى اليوم، اجتمع فيه زعماء أوروبا. عشرات اللوحات النادرة، أشار المترجم إلى حجرة مزينة بأكثر من مائة لوحة، قال كل لوحة قيمتها عشرة ملايين دولار، الحجرة تساوي أكثر من ألف مليون دولار، قاعة للموسيقى بها مئات الكراسي المطلية بالذهب الخالص، إحدى الحجرات نام فيها «نابليون بونابرت» وهو سائر في إحدى غزواته، بجوار القصر داخل الحديقة مقهى أنيق صغير، شربنا قهوة، الجرسون غالطنا في الحساب، هدأ المطر قليلًا بعد أن نزلت قطرات منه فوق رأسي.

* * *

اكتشفَت منذ زمن بعيد زيف الحياة الاجتماعية، زيف العلاقات التي تقوم على الكذب والرياء والمداهنة والأنانية، زيف الملابس الغالية والمظاهر الاجتماعية الجوفاء، زيف كل ما تزخر به الحياة البورجوازية وما يحيط بها، زيف كل نساء الطبقة وضحالتهن وسخفهن. اكتشفَت كل هذا، وكانت تتفق معي في أنها قيم جوفاء مهترئة، ولكنها كانت تصمم على ممارستها وبوعي شديد، ولم تقبل قَطُّ أن تتناقض مع هذا الزيف بل كانت تسايره وترفض أن تثور ضده، ولماذا تتناقض معه وهو من الممكن أن يكون غطاء للكثير من تصرفاتها الخاصة؟

كانت تستخدم التقاليد الاجتماعية وتمارسها دون اقتناع، وهذا

t.me/qurssan

هو موقف الطبقة كلها من القيم العفنة، تمارسها وتسخر منها، تتعامل مع الزيف والخداع وترفض إزاحته، وعندما تناقضت أنا مع هذا كله وطالبتها بأن تتحلل من هذه الحياة المزدوجة رفضت تمامًا، وتراجعت أنا. قالت:

. لست مقتنعة بما هو سائد، ولكني لن أتخلى عن قيم مجتمعي خوفًا من تشهيرهم بي.

قلت:

. والحب؟

قالت:

. علينا أن نبحث عن حل يوفق بين هذا وذاك.

قلت:

. أنت لا تقيمين وزنًا كبيرًا لأهلك وإخوتك وطريقتهم في التفكير وفي الحياة، فلماذا لا ترفضين هذا كله؟

قالت:

. المشكلة هي «أنا»، أنا لا أريد أن أبدو في نظرهم نشازًا.

قلت:

. ولكنك مقتنعة أنك على صواب وهم على خطأ.

قالت:

. ولكني لا أحب أن أقف متناقضة مع مجتمعي مهما كان متعفنًا.

قلت:

. لا يكفي أن يعرف الإنسان أن هذا مزيف، وهذا خطأ، ولكن عليه أن يقاتل ضده ويرفضه حتى لا يزحف الزيف حتى نخاعه ويأكله.

t.me/qurssan

قالت:

- غدًا تعرف أنني لا أحب حياة البورجوازيين، وإذا قدر لنا ولم نتزوج فقد أتزوج إنسانًا أبسط منك بكثير.

ثم ضحكَت، وقالت:

- لكن لا بد أن يكون شابًّا وقويًا.

وضحكنا. قالت:

- لقد أصبحت أنت برجوازيًا أكثر مني، لقد كنت في البداية معاديًا لهذه الطبقة وقيمها ومظاهرها وأصبحت اليوم تمارس ما تمارسه هذه الطبقة وأكثر، ولم يتبقَّ غير فكرك المتناقض معها، ولا أدري إلى أي مدى ستظل متمسكًا به.

وقالت برقَّة:

- حتى مقالاتك اليوم واهتماماتك.

وكانت هذه هي الحقيقة، والمأساة، وضحكَت، وضحكت أنا ضحكًا مريرًا يقطر دمًا.

* * *

تقف الماكينات في الشارع ترفع سلالمها لتنظيف جدران الكنيسة من الخارج، الكنيسة اسمها «اشتفانزدوم»، من الخارج أبراجها تحف بها عشرات الأعمدة الصغيرة المنقوشة، بل مئات، ظهرها يمتلئ بالقيشاني والزخرفة، وكل جزء من جدارها الخارجي منقوش ومصنوع بدقة. أسقف من الزجاج الملون المعشق وعشرات من التماثيل المصنوعة من الذهب ومن الخشب ومن النحاس، دقة الصنع تبهرني، بناؤها بدأ في القرن الرابع عشر، فيينا منظرها مهيب من فوق برج الكنيسة عندما صعدنا إليه، سقف المدينة مكون من آلاف الأسقف ومئات الأبراج السامقة، وتعلو التلال البعيدة وتحيط بالمدينة تحرسها، وتبدو آثار بعض معارك القرون الوسطى التي خاضتها فيينا ضد الأتراك وضد

t.me/qurssan

غيرهم وآثار ما دُمر في الحرب العالمية الثانية، وكيف أعيد مرة ثانية متحديًا ومنتصرًا، من هذا المكان السامق انتحر أيضًا كثيرون. أمضينا ثلاث ساعات في رحاب التاريخ والفن والبراعة والقداسة والعصور الوسطى وخرجنا ومعنا جلال، سرنا في الميدان الواسع، عبرنا الشوارع، جلال هادئ وبسيط ومبتسم دائمًا، لكن هدوءه غطاء لعالم غريب، أحبنا وتفانى في خدمتنا، ذهب معنا إلى كل مكان، شفتاه غليظتان، يتبسم ولا يقهقه، شعره مجعد لا يميل إلى القصر، يتحرك ببطء، وبلا توتر، لكن داخله يضطرم. كان يعمل موظفًا في القاهرة، وأحب فتاة، وفجأة أحس بأن الطرق كلها مسدودة، سافر، لكنه رسا على هذه المدينة والتحق بالعمل، تعلم اللغة وتحدث بها، تعرف على فتاة نمساوية، ولكنه يهفو إلى كل إنسان آتٍ من الجانب الآخر. هل تمكن من قهر الأنانية، أم هو الغليان والاندفاع والقهر والإحباط وتعقيدات الحياة؟ كان رائعًا لحظة أن تعارفنا، تبنى كل مشاكلنا، لازمنا طول الوقت، أحبنا ولحظة الفراق كان حزينًا ومفتقدًا لنا قبل الرحيل، سميناه «زوزو». في كل بلد نلتقي بزوزو، الإنسان الخدوم بلا سابق معرفة، الممتلئ بالرغبة في الحب والتفاني والتضحية والحزن عندما نرحل، الالتصاق بنا لا لشيء إطلاقًا، نوع غريب تمزقه الوحدة، الوحدة ذات المغزى الخاص، عندما يلتقون بنا، كالشهاب يلتقي بغلاف يتحرق شوقًا لأن يحترق ليؤكد ذاته ويعود ترابًا ثم يمضي التراب ويعيش ممزقًا بالوحدة.

ذهبنا إلى الفندق، جلسنا، قلت لعمر:

. فلنكتب رسالة لزوزو.

كتبت لها، قلت لها في الرسالة:

نحن الآن في فيينا، وسنرحل بعد يومين إلى برلين، سنمضي هناك أسبوعًا، لا نعرف أين سنذهب بعد برلين، إلى الشمال أم إلى الجنوب، ليست لدينا خطة، وهذا أفضل. نفتقدك كثيرًا، ونتذكرك دائمًا، أحيانًا نتحدث عنك. عمر صحته جيدة، شفيت أسنانه تمامًا، ويأكل كثيرًا، ما زلنا نبحث عن الفنادق الرخيصة، وحتى

t.me/qurssan

الآن نعثر عليها بصعوبة، لأنك لست معنا. اكتبي لنا على عنوان صديقنا في برلين، نشكرك على اهتمامك بنا، في رحلة العودة طبعًا سنراك، هذا ضروري وإلا تصبح العودة لا معنى لها، سنلتقي مرة ثانية.

فيينا، ٨ يوليو ١٩٧٢.

في الصباح أرسلت الرسالة. الشوارع تغص بالناس، فتيات يسرن حافيات ويرتدين البنطلونات، الثراء الفاحش في المتاجر والناس والعربات والمحلات. في الحدائق ينام الناس بملابس مهلهلة، الشوارع الضيقة تمتلئ بالتناقض والفقر، فيينا مدينة نظيفة. قال جلال:

. يوم حادث اللد تظاهر اليهود.

قال جلال:

ـ اليهود في فيينا يمتلكون الثروة ويسيطرون على مكاتب السياحة والبنوك، والعرب فقراء مهددون بشكل حقيقي، هذا طبيعي، نحن الفقراء وهم الأغنياء، هم البورجوازية ونحن الذين نقاتل من أجل أن نحيا، ونحلم بالمستقبل.

ذهبنا للغداء، الجرسون مصري، تحدثنا، واجه المصاعب في البداية، قال إن صاحب هذا المطعم يملك ثمانين مطعمًا مماثلًا. قال إن الفتاة هنا لا تعرف الحب والصبر والوفاء، إذا تركتها فترة فلن تعود أبدًا، فرق بين الحياة العصرية وإيقاع الشرق و«ألف ليلة»، لا إخلاص، الحياة هنا عملية ولا تناسبنا، إيقاع الحب وأغاني أم كلثوم والحياة المترهلة البطيئة غير موجودة، الإيقاع سريع ومتوتر. انتهينا من الطعام. قال آخر:

ـ لماذا لا تصبح بلدنا مثل فيينا؟ بلدنا مبتلى، الفساد والرشوة استشرت، لا قيمة للعلم والأساتذة والمثقفين، وقد تفشت في الحياة عيوب الرأسمالية التي زحفت وغطت مصر بالبثور وشوهتها.

t.me/qurssan

كانت منى بسبب غرابة شخصيتها وتفردها نموذجًا فريدًا، وكان أخوها الآخر مؤثرًا على نحو ما في حياتها، وكان صديقي لعدة سنوات، هذا في البداية، كان شابًا من أنضر الشبان، يمتلئ بالحيوية والإخلاص والعواطف النبيلة، والحب للناس، والشوق إلى العدل وإلى حياة صادقة حقيقية. ولكن الأيام قاسية لا ترحم، احترقت في حادث لا مبرر له بعض ملامحه النضرة الحلوة العذبة، وفقد جزءًا من بصيرته الحادة الذكية الواعدة، وانكسر جزء في داخله، وتدمر، ولاحقته القوانين الجديدة، اقتطعت منه أجزاء صغيرة من أرضه، وتركت له أعوامًا طويلة من القلق والخوف، وقبل كل هذا انتقل من قريته وعاش في أوروبا فترة، رأى الحياة والحضارة والتقدم، وعندما عاد وتزوج صدمته الكوارث بلا أي مبرر، وعانى من الانفصام الذي لا مفر منه، وترسخ في داخله المتأرجح وعيه بالحضارة وإيمانه بمُثل القرون الوسطى وتقاليدها، وعششت في وجدانه أفكار القرية المتخلفة، وانزوى وضمر تفتحه العقلي وتوهجه، وعجز عن إحداث التوازن، وتواطأ ضد الحقيقة التي في داخله، وتهاوى داخل نفسه، وهو لا يريد أن يعرف أن السنوات القليلة القادمة ستشهد انهيار العالم القديم، ولن يسوي الأمور المزيد من الخمر، وستستمر حياته في حي الحسين، ويعود من رائحة القِدَم محملًا بالبُن المطحون والطرشي عبر شوارع الماضي المملوكية إلى منزله بالزمالك إلى المطار إلى لندن حيث يناضل مستميتًا لكي يعيد الملامح المشوهة إلى أصولها، ولكن ما تأكله النار قد يعيده أطباء لندن، وما يأكله التخلف والماضي لن يعاد أبدًا، ولن يبعث إلى الحياة من جديد.

* * *

كان الوقت قد أزف للذهاب للسينما، اسم السينما «راندل»، تعرض أفلامًا عارية عريًا كاملًا، هذا النوع من دور العرض منتشر بالآلاف في طول أوروبا الرأسمالية وعرضها، وهذه السينما تتميز بأنها تعرض عرضًا حيًا قبل الفيلم، كل صف في السينما له سعر خاص،

t.me/qurssan

بجوار كل مقعد منضدة، طلبنا بيرة، أعمار رواد السينما في الأربعين تقريبًا، الموسيقى تسبق العرض، دفعنا نحن الثلاثة شلنًا ونصف شلن، بدأ العرض الحي، عدد من الفتيات يلبسن غلالات شفافة، يسرن من أول المسرح حتى آخره وببطء شديد، ويكشفن عن أجسادهن العارية تمامًا، إحدى الفتيات تلبس لباسًا أسود له سوستة حمراء، فتحت السوستة ووقفت واستدارت عارية تمامًا وذهبت، بدأ الفيلم، المنظر بار، ست فتيات يجلسن ويحكين عن تجارب حدثت لهن، الكاميرا تذهب مع كل فتاة وتصور تجربتها، انتقلت الكاميرا مع فتاة تعمل ممرضة مساج في معهد التدليك، تدلك شابًا عاريًا وهي شبه عارية، فتاة أخرى تأخرت عن عملها واسترضت رئيسها بأن تذهب معه ومارست الجنس في منزله، عشرات من العربات تقف بداخل غابة وبداخل كل عربة فتى وفتاة وتجارب جنسية مختلفة، ويمضي الفيلم هكذا... خرجنا من السينما، الجو حار، أول مرة أرى مثل هذه الأفلام الغربية. قال جلال:

ـ لو حدثت انتخابات فسينتصر الشيوعيون طبعًا، الشباب كله يساري ورافض لهذا النمط من الحياة، الشباب يرغب في حياة مختلفة تمامًا.

***

عانت منى معاناة قاسية من شكوك أخيها وملاحقته لها، وتألم حتى النخاع من تمزقه الداخلي، بين تصوره للشرف وشكوكه، وبين رغبته أن تبدو الحياة متسقة، ولكنه لم يدخل قَطُّ إلى داخلها ليتعرف عليها. في الإسكندرية سهرت يومًا حتى منتصف الليل مع إحدى قريباتها، وعندما عادت إلى المنزل طردها أخوها وأهانها إهانة جارحة قاسية، ولم تنم طول الليل، وفي الصباح جاء إليها يبكي ويطلب الغفران، وفي لحظة لا بد أن يحدث الانهيار، أن تنهار تمامًا أمام الوطأة، وينهزم الحب والحقيقة والصدق، وتنفصل مركبتها التي تحلق في الكون وأنا بداخلها، وبدلًا من أن تهبط على كوكبها الحقيقي، لا مفر من أن تهبط فوق التراب الناعم الذي يعفر الملامح ويسد مسام الروح ويضاعف

t.me/qurssan

تجعيدات اليد والأصابع والروح.

* * *

سرنا على حافة نهر الدانوب الأزرق، انطلقت العربة لنذهب إلى «البراطر»، مدينة الملاهي، حديقة هائلة لا حدود لها، ركنَّا العربة، في مدخل المدينة الشبَّان «الهيبيز» يعرضون أشياء معدنية صنعوها بأيديهم، شاب يخطب ويقف أمامه عدد من الناس، فرقة موسيقية من أربعة شبَّان، سرنا أكثر من ساعتين، الملاهي تعكس مستوى حضارتهم وصناعتهم حتى في اللعب، جلسنا نشرب، صديقي عمر يُقبل على اللعب، وأنا عازف عن المشاركة، يريدنا أن نركب العربات الكهربائية السريعة التي تسير على قضبان وترتفع إلى أعلى وتختلط العربات بالأخرى ثم تهبط محدثة صوت الهبوط العنيف، رفضت، متعتي الفرجة وليس المشاركة، دخلنا أروقة ممتلئة بالألاعيب الكهربائية، نضع شلنين وتظهر على الشاشة من الداخل طائرة زرقاء تطير في سماء الشاشة وتمسك أنت بمقود في يدك تحركه وينطلق منه رصاص عليك أن تصوبه نحو الطائرة السابحة، وتصبح اللعبة مثل الحقيقة، طائرة وأنت تحاول أن تصيبها وتوقع بها لو استطعت، وقفنا نتفرج، كان يلعبها أوروبي وأوروبية وأصابا الطائرة واختفت، دفع عمر شلنين، وبدأ يلعب، وطائرتنا تسبح بسرعة، وكأننا أمام الرادار، وظل عمر يحرك المقود إلى الأمام وإلى الخلف، وطلقاته تخيب، وانتهى الزمن المحدد للعبة ولم نصبها، وجدنا شابًّا ومعه مضربان من مضارب كرة الطاولة لا يجد إنسانًا يلعب معه، رجانا أن نأخذ مضربًا لنلعب معه، سرنا وسط مئات من اللعب والعربات وقطارات السكك الحديدية وعشرات المقاهي الصغيرة والموسيقى بداخلها، تثير الدهشة وأحيانًا الصداع، وأرهقتنا الدهشة والفرحة والغرابة، وبدأنا نجرجر أقدامنا من التعب، وضجيج المدينة يوتر الأعصاب ويثيرها. قال عمر:

. أنا لا أنتمي لهذا العالم، أنا لا أنتمي لأوروبا.

قلت:

t.me/qurssan

- أنا متفرج على الذين يلعبون، مشاهد، ولا شأن لي، العالم كله لا يعجبني، وأنا أدينه ولا أوافق عليه.

جلسنا نشرب ونتحدث. قال عمر:

- لقد تحول الحب والالتقاء الروحي إلى مادة للروايات الرومانسية التي يسخر منها الناس في عصرنا.

قلت:

- هذا حقيقي، ففي ظل الرأسمالية لا حب، ويتحول الزواج إلى شكل أجوف مخرب من الداخل، والزوجة التي تعجز عن الخيانة تمارس الدعارة بينها وبين زوجها نفسه. ففي إحدى الروايات يقدم الكاتب نموذجًا لزوجة ترفض أن تنام مع زوجها قبل أن يدفع لها نقودًا وأحيانًا قماشًا، والنوادي تمتلئ بقصص لا حصر لها عن تبادل الزوجات، الجميع في حالة زواج مشروع، والجميع في حالة انحلال مطلق، ولا إفلات من العفونة، الزواج في مجتمعهم دعارة مقنعة، وما من إنسان قد تزوج إلا ويقول لا تتزوج إنه لعنة، وما من زوجة إلا وروحها قد دمرت في بداية زواجها وانتهى الأمر، وكلما جن الليل حلَّقت روحها وحلمت باللحظات الأولى من بداية الحياة.

* * *

الصالة تتوسط البيت ويسودها التوتر المكبوت المغطى بالهدوء، وكانت تجلس داخل إحدى الحجرات المجاورة وأمامها مرآة تعكس ما يدور داخل الصالة، وكان أخوها يجلس وبجواره المأذون وزوجها، واثنان من الشهود، وكتب المأذون صيغة الطلاق، لم يوقِّع زوجها القسيمة إلا بعد أن عد النقود، اطمأن أنها مطابقة للرقم الذي طلبه، وقَّع القسيمة. كانت منى ترى المشهد المتوتر، كان المنزل لأحد أقربائها، كان الوقت في رمضان، وصممت أن يشرب الجميع الشربات المثلج. ذهب الجميع، وبعد أن تم هذا كله تحدثت إليَّ بالتلفون، كانت مقهورة على النقود التي دفعتها، لقد تركها زوجها مفلسة بعد أن أخذ في مقابل

t.me/qurssan

طلاقه منها بضعة آلاف من الجنيهات، ولم يتبقَّ غير ما تملكه من أفدنة. قلت لها:

. إذا كنت تريدين حريتك لكي تبدئي حياة مختلفة تمامًا وجديدة ومورقة فلا قيمة للمال، ولكن يصبح الأمر كله خسارة فادحة إذا تكررت هذه الحياة من جديد، وعدت إلى نفس نمط الحياة الزوجية الذي رفضته، وسيصبح الأمر كله مهزلة.

* * *

فوجئنا بعربة نقل مقلوبة على ناحية من الطريق كانت تحمل صناديق من الأرانب، تبعثرت الصناديق وانفتحت، وامتلأ الطريق بالأرانب المذعورة، عيونها تلمس الطريق الواسع في جهل وخوف ورهبة، وقد فقدت صناديقها فجأة، وامتلأت بالذعر والفقد، كان مظهرها يثير الرثاء، وهي حائرة، وتوقفنا بعدها بأمتار لنأكل.

خلعنا ملابسنا، وارتدينا ملابس نظيفة، هذه آخر ليلة لنا في فيينا، أمضينا ستة أيام، وأبرقنا إلى صديقنا أن ينتظرنا في برلين، وبقي على موعدنا معه يومان، غسلنا العربة، سنغير الزيت في الصباح، كان الهواء باردًا، وصلنا المقهى، الشوارع حية وممتلئة بناس من جميع الجنسيات، أوروبا كلها هنا تأكل وتسير وتسهر وتتلكأ أمامي، المقهى أوروبا، الجرسونة أوروبا، الشوارع أوروبا، في كل ثانية في كل لحظة أنا في أوروبا، ولست أوروبيًا، أنا غريب، مشاهد سائح متطفل عاجز لا شأن لي. جاء جلال بهدوئه المضطرم، الوحيد المحب المتفاني المناضل ضد وحدته المتداخل معنا، قال:

. أحقًا هذه آخر ليلة؟!

قلنا:

. نعم.

اكتسى بالحزن لحظة، قادنا إلى مقهى لا يفتح أبوابه إلا بعد منتصف الليل ويظل ساهرًا حتى الصباح، الباب مقفل، قرعنا

t.me/qurssan

الباب، فتحوا، الضوء بالداخل خافت لا يكاد يُرى، هبطنا درجات، بجوار الباب بار، فوق البار زجاجات مقلوبة، الموسيقى تشتعل، المقاعد والمناضد متلاصقة، المكان حار وضيق وممتلئ، والزحام يلغي الرهبة، الطرقة ضيقة لا تتسع إلا لمرور شخص واحد، الرقص دائر، جميع الأصوات التي في الدنيا تصلح للغناء، الخشنة والمبحوحة والفظيعة والمرهقة، إيقاع «الذكر الديني» في الموسيقى والحركات، المقهى رهيب، الساعة اقتربت من الواحدة صباحًا، الطرقة زحام، المكان كالقبو، لا أحد يهتم، الطابع العام للشباب هو الانطلاق، فتاة ترقص بشعرها الطويل فقط وبعنف شديد، لا أحد يهتم بها، ترقص لنفسها، فتاة أخرى ترقص وتتمايل على إيقاع داخلها، كل إنسان يقف فقط على قدميه ولا يكاد يتحرك من الزحام، وجدنا في النهاية بضعة مقاعد، جلسنا، الإيقاع لا يمت إلى أوروبا التقليدية نهائيًا، شاب يضم فتاة بشكل جنوني ويتمايلان. تعرفت عليها، كانت ترغب في الحديث، وتذهب إلى آخر الصالة لتسأل صديقًا عن ترجمة كلمة إلى الإنجليزية وتعود إليّ، اسمها «فالترود»، بيضاء شعرها أصفر، ملامحها متميزة، قالت:

. لا يوجد إنسان حر، لا يوجد مكان يجد فيه الإنسان حريته، كف عن الكتابة الآن.

ومنعتني بالفعل. قالت:

. لست ماركوزية ولا وجودية.

قالت:

. في طوكيو يقول الراديو أحيانًا للناس: «الزموا بيوتكم، لا تلعبوا رياضة اليوم، اقتصدوا في استنشاق الهواء»، ذلك لأن هناك أزمة في الهواء بالنسبة لكثافة السكان.

قالت:

. بعد عشر سنوات أو أكثر قليلًا سيكون الماء العذب أغلى من ثمن الخمر.

t.me/qurssan

قالت:

. الإنسان سائر في طريق الدمار.

قالت:

. لماذا تحاولون أن تكونوا مثلنا؟ نحن لسنا راضين عن أنفسنا، وليس هذا هو الطريق الصحيح، طريقنا ليس صحيحًا، وطريقكم ليس صحيحًا، وطريق الاشتراكية والرأسمالية والشيوعية لا يؤدي إلى طريق صحيح، ولكني لا أدري ما هو الطريق لإنقاذ الإنسان، أنا مجرد إنسانة وسط ملايين الناس، لا تسألني عن الحل فأنا لا أعرف الحل ولا الطريق.

تحدثت طويلًا مع «فالترود» عن بلادنا والشرق والثورة والحب، كانت دائمًا ملتهبة ومختلفة تمامًا، ولكنها تريد أن تعترض وتناقش، وجاء صديقها ولم يتحدث معي، أخذت من سجائري وأعطته، كان يجلس دون أن يشارك، مد ذراعيه حول خصرها وظلا يتبادلان القبلات وهو صامت وأنا أتحدث، وهي تحدثني لحظة ثم تشاركه قبلاته، سألتني عن نفسي، حكيت لها عن أزمتي، قالت:

. ضاجع الفتيات بكثرة واندمج مع الأصدقاء.

احتواها صديقها للحظات في صدره، وضم شفتيه على شفتيها في قبلات متصلة، ويداه تعتصران صدرها، وقررت فجأة أن أترك المقهى. قالت:

. لماذا تشعر بالاستفزاز؟ لماذا تستفزك حريتي؟ لماذا تتضايق؟

قلت:

. لا أدري، ولكن اسمحي لي بالانصراف.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة صباحًا، خرجنا، كان ضوء النهار قد بزغ، كنت قد شربت كثيرًا، وسرنا في الطريق إلى الفندق.

t.me/qurssan

فتحت الباب، فوجئت بصديقي فريد، كانت مفاجأة مذهلة، دفعت له أجر التاكسي من المطار إلى منزلي، قال:

ـ ركبت الطائرة من برلين إلى القاهرة منذ أربع ساعات فقط، وذهبت بالتاكسي إلى بيت أخي ولم أجد أحدًا، ذهبت إلى منزل أمي ولم أجد أحدًا، قلت آتي إليك.

احتضنته وأنا أضحك مذهولًا وأتساءل:

. ما الذي جاء بك؟

ضحك، وقال:

. جئت.

قال:

ـ تمنيت وأنا في الطائرة أن تنفجر، أن أموت، لا أرغب في الانتحار، ولكني أود أن أموت، ولكن هذا لم يحدث.

قلت:

. لماذا جئتَ؟

قال:

. أتذكُر عندما كنتم عندي أنت وعمر في يوليو الماضي؟

قال:

. تذكرت كل لحظة، ولم أعد أستطيع مواصلة الحياة في برلين دون أصدقاء.

قال:

ـ أنا أحبها بجنون، ولكني لا أحتمل الحياة، أنا أعرف أني آتٍ للدمار، فكيف يستطيع الإنسان أن يعيش بلا حب، ولن ترضيني

t.me/qurssan

أي امرأة في العالم، ولن أتذوق الجنس مع غيرها، لكني أرغب في أن أرى وأعود.

قلت:

. ستدمَّر دمارًا رهيبًا، ستجد كل شيء بالضبط كما تركته منذ عام، العمل كما هو تافه بلا معنى ولا قيمة، الحياة والشوارع وكل شيء يسير بعنف وقوة نحو الانفجار، الناس جميعًا قد دمروا وضلوا، وستمضي في حياة من المستحيل احتمالها، ولقد كتبت إليك.

قال:

. فليكن، أريد أن أرى، أتذوق، أرى الشمس، أنت لا تتصور الشقاء والحياة الرمادية وضوء اللمبات وهي تضيء المكان في النهار، والرسام يدرك هذا جيدًا، هنا الشمس طول الوقت، بل أكثر مما يجب، ولكن هناك الرمادية والثلج والقتامة التي تتسرب حتى النخاع والعظام، وتترك اليأس الرهيب.

قلت:

. سنرى، فلنشرب من الويسكي الذي اشتريته.

قال:

ـ تركتها وهي على حافة الجنون، كانت ترتجف وتبكي طوال الأسبوع الماضي وهي لا تصدق أنني ذاهب، لكن أطفالها في الحقيقة كانوا جنونًا لا يحتمل بالنسبة لي، وماذا أفعل، من حقها أن تحب عالمها وأطفالها، صدقني أنا أدرك هذا، ولكن في نفس الوقت، أطفالها ليسوا عالمي ولا أستطيع أن أنتمي إلى عالمهم، والعمل أصبح مشكلة، وتحقيق الذات والاندماج في الحياة البرلينية مستحيل، لا صديق، لا صداقة، الحياة مثلجة، لكنها رائعة إلى أقصى حد، لا يمكن أن تتصور رقتها وحنانها وذكاءها وقدرتها، والتطابق الجنسي الكامل الذي عشته معها، ولن أعيشه أبدًا مع أي إنسانة أخرى، وإدراكها لكل متاعبي:

t.me/qurssan

... أول أيام فراقنا مضى والأيام التالية من الفراق لا أرغب في التفكير فيها، انتظرت في المطار حتى الساعة الواحدة ظهرًا، تعبت «كارولين» و«فابين»، وكان من الضروري أن نفارق المطار، رغم أن الطائرة لم تكن قد ارتفعت، لم تكن لديَّ قدرة على البكاء، أحسست بألم شديد، وصل الارتباك إلى معدتي، وفي المعهد أغرقت نفسي في العمل، اتصلت تلفونيًا بالمطار أملًا في أن تكون الطائرة لم تصعد إلى السماء، لكنها فعلًا كانت قد فارقت الأرض، الآن أنت موجود في وطنك مع عائلتك. لا بد أنها فرحت بك جدًّا، ربما من السعادة بكت أمك كثيرًا مثلما بكيت، سعيدة لأنك في وطنك رغم أن هذا مؤلم إلى أقصى حد أنك لست معي، أولادي لاحظوا أن الحياة سخيفة بدونك، ابني كان ممتعضًا، جاء وتغدى وانشغل في الواجبات المدرسية، وأخذ النقود التي تركتها على المكتب، اشترى بها آيس كريم وشوكولاتة، رأيت الورقة التي تركتها، قرأتها: «أنا أحبكِ جدًّا»، عندما أحس أنك تحبني فعلًا أمتلئ بالأمل، وهذا يجعلني أواصل وأنتظر... أحس أن الحياة يمكن أن تعاش «لأنك تحبني» حتى ولو لم تكن معي. أحس أن الحياة أنت وأنا، وحبك يجعلني أحتمل وأواصل، أنا مرهقة تمامًا ومحطمة، والأولاد نائمون وأستعد للذهاب إلى الفراش، البيت صمت، الفراغ رهيب، لست أدري كيف سأواصل وأحيا الحياة الضرورية، قلبي ممزق، عاجزة عن البكاء، وأحس بالفظاعة، والفراغ الجنوني، والوحدة الرهيبة، يلفني التوتر العنيف ويحيط بي، أشعر أن كل خلية في جسدي تؤلمني وتتدمر، ولكن هذا أيضًا يمضي، أنت غير موجود، ولكني أشعر بك معي دائمًا، لقد قلت أنت ذلك، ما الذي يحدث الآن؟ هل تظل معدتي وقلبي ورأسي عاجزة عن الفهم وعن التصديق أنك بعيد، بعيد، بعيد وإلى وقت طويل؟ لا تحزن يا حبيبي، أنا لا أستطيع أن أسيطر على الألم، لا بد أن أنام فورًا، أحبك وأنتظر وأُقبِّلك آلاف المرات.

برلين - أول أكتوبر ١٩٧٢

إنجريد

***

t.me/qurssan

قلبي يمتلئ باللهفة والرغبة للوصول إلى برلين، مضت عشرة أيام من شهر يوليو الساخن، سألتقي بفريد وصديقته «إنجريد». اخترقنا شوارع فيينا، توقفنا، سألنا على طريق الأوتوستراد، كانت الساعة الثانية عشرة، العداد ٥٦٨٠٠، واصلنا السير، توقفنا داخل قرية «بويزدورف» على الحدود، دخلنا مقهى بجوار الحدود، أكلنا، شربنا قهوة، غيّرنا بعض النقود، أمام الحدود توقفنا دقائق، فحصوا الأوراق، سمحوا لنا بالسير، سرنا لحظات، توقفنا أمام الحدود التشيكية، ختموا الباسبور، دفعنا ثلاثة دولارات تأمينًا للعربة، غيّرنا بعض النقود، اجتزنا الحدود التشيكية عند قرية «بتروزلكا» التشيكية.

طريق جديد، أحب الأشجار والخضرة والسير في الطريق، الأشجار الشاهقة تظلله والمزارع الخضراء على الجانبين مثل مصر. بعد لحظة من السير دخلنا مدينة صغيرة، صادفتنا فتاتان تركبان معًا دراجة، أشرنا إليهما بأيدينا، ردتا التحية، تفاعلنا. الطريق جميل، ضاق الطريق فجأة وتعرج وأبطأنا السير، وانسد الطريق.

* * *

في البداية كرهَت البطالة والضحالة، ذهبَت إلى المركز الفرنسي لتتعلم الفرنسية، ذهبت إلى معهد الآثار لتتعلم التاريخ، أرادت أن تتعلم فن التفصيل والتحقت بمدرسته، اشترت ماكينة تريكو لتتحول إلى منتجة أو عاملة، بدأت تقرأ وتشتري الكتب. سارت مني سيرًا رائعًا في طريق التغيير، ومن الفرحة الشديدة تراخيث، فزحف القديم كله ليأكل الجديد الأخضر البازغ، عادت إلى الفراغ من جديد، إلى الأقمشة الزاهية، والاهتمام الشديد بالأردية والكراسي، والارتباط العائلي البورجوازي، بعد أن كادت أن تنخلع عن هذا كله وتبدأ حياة جديدة. الحب نار تصهر وتغير، ولكنها لو هدأت قبل أن يحدث التغيير تشوَّه وزحف القديم. قالت مرة أمام كتاب أعطيته لها إنها أصيبت بالصداع بعد أن قرأت منه عشر صفحات بصعوبة شديدة، وبدأ الذبول يحل فوق كل شيء، بل

t.me/qurssan

تسرب الفساد إليَّ أنا، وسبحتُ داخل دوامتها، لا أكتب، لا أقرأ، لا أرى، أتكاسل في عملي، أصبحت عاطلًا نذلًا سخيفًا، جنسيًّا حسيًّا بلا معنى. وجرفَتني بعد أن صعدتُ بها وصعدَت معي، ولم أعد أطيق الوقت الذي أقضيه معها، وتركت الحب ينهدم، وعلى كاهلي أتلقى الأنقاض والهدم وأعيد ترتيب الحياة من جديد بعد هزيمتي الساحقة. ولكن ألم يكن ممكنًا أن أنقذ نفسي وأنقذها، لو كنت أكثر قوة، لو كنت أقل فسادًا، لو كانت قد أعطتني بصيصًا من الأمل، لو كفَّت لحظة واحدة عن الكذب، لو كنت أقل أنانية وقذارة؟ ولكن كيف يمكن لغريق يحاول الطفو فوق الماء إنقاذ غريق آخر ينجذب نحو قاع النهر؟

* * *

شعرنا بظمأ شديد، توقفنا أمام أحد المقاهي الصغيرة، دخلنا، شربنا زجاجة مياه غازية. الفتاة التشيكية التي سقتنا جميلة جمالًا ساحقًا. اخترقنا عددًا كبيرًا من المدن الصغيرة، الناس غير موجودين، وكأنهم أغلقوا مدنهم بالمفتاح وتركوها وهربوا، السبب أن اليوم هو الأحد. بعيدًا وعلى آخر مرمى البصر بعض البحيرات، وأحواض السباحة. تلتف حولها مئات العربات، آلاف يسبحون في المياه. اخترقنا مدينتين كبيرتين، الطريق يتسع، أوقفتنا فتاة في التاسعة عشرة، جميلة بضة تلبس بنطلونًا قصيرًا. قالت إنها تريد أن تذهب إلى مدينة في طريقنا اسمها «كولين»، تحدثت قليلًا، أعطيتها بعض الكريز الذي اشتريناه في الطريق، نزلت، حيتنا بحرارة.

* * *

دق جرس التلفون، كانت منى التي تتحدث، اليوم ٥ أكتوبر، قالت:

. هل نلتقي غدًا؟

قلت:

. لا.

t.me/qurssan

قالت:

. فلنلتق قبل أن يأتي رمضان، سيحل رمضان بعد يومين.

قالت:

. لقد أعددت الطعام ونفسي وكل شيء.

قلت:

. فلنؤجل.

قالت:

. لم تعد تهتم!

قلت:

. ولماذا أهتم؟!

قالت:

. أستظل محادثاتنا بعد عودتك من أوروبا هكذا؟

قالت:

. لقد تغيرتَ تمامًا!

قلت لها:

. لن أتزوج أبدًا.

وسألتها:

. وأنتِ، متى تتزوجين؟

قالت:

. ربما بعد فترة.

قالت معاتبة:

t.me/qurssan

- كنتَ تهفو إلى الزواج قبل رحلتك، ما الذي حدث؟

* * *

لا أصدق نفسي، كانت حلمًا تجسد لي يوم أحببتها، تصورت أنني احتضنت الدنيا، أعطيتها حياتي، كنت لا أحتمل أن نبتعد ساعتين دون أن نلتقي أو نتحدث، كانت تترك الدنيا كلها لتلقاني. كنا معًا في الشارع، أمطرت السماء، هبت العواصف والأتربة، كان يومًا عاصفًا، اختفى كل الناس من المدينة، كنا نحن فقط الذين نسير في المدينة كلها. كنا سعداء، ننظر إلى أنفسنا في دهشة حقيقية، كان الحب جارفًا.

* * *

وصلنا مشارف «**براغ**»، دخلنا براغ، مدينة ذات طابع خاص، تمتلئ بالقِدم والطرق الضيقة، وشوارع القرون الماضية، الترام والعربات القديمة والكباري، سرنا على أطرافها حتى لا نتوغل في الداخل، تهنا مع ذلك. سألنا، سرنا، توقفنا بجوار أتوبيس سياحي، نزلت فتاة من الأتوبيس، لصقت صدرها بذراعي وهي تشرح لي الطريق، تهنا مرة ثانية. المدينة كالعادة ليست مزدحمة، أمضينا ساعة نلف وندور، أخيرًا قادتنا الأسهم إلى الطريق الرئيسي الذي يصلنا بـ«درسدن»، الطريق رائع، قرص الشمس يزحف نحو المغيب، ضوء الغروب لا يزال. توقفنا أمام محطة بنزين، سألنا عامل المحطة عن أخبار الاشتراكيين في مصر. اختفى القرص، وغابت الشمس، ولا يزال ضوؤها خافتًا. أحسست بالألم والانقباض، لا أستطيع أن أستوعب الحياة، تنبت الأشياء وتخضر وتورق وتتفتح الورود وتذبل وتسقط وتجف، لا مفر من هذا القانون ولا فكاك. قال صديقي عمر:

- لقد كانت الظروف دائمًا أقسى منها، كانت تصرفاتها وانفعالاتها تبدو محيرة، لقد جف وجدانها ولم يعد يستقبل، وتكلّست كل الطرق والشعيرات التي تنبض وتكوِّن الداخل، الشرايين الموصلة للقلب، والهزة والارتجافة، والدهشة ماتت وتجعدت عواطفها.

t.me/qurssan

لم أعد أطيق استمرار الحياة، هل أحب مرة ثانية؟ الحب يجعل الإنسان مزدحمًا وغبيًا. خيم الظلام تمامًا ونحن نواصل السير بالعربة، توقفنا أمام الحدود الألمانية، أعطونا ورقة لنكتب فيها أسماءنا، ورقم الباسبور، ومكان الولادة، وتاريخ ولادتنا، والجنسية والمكان الذي نسكن فيه، ونوع العمل، وسبب زيارة ألمانيا الديمقراطية، وفتشوا العربة تفتيشًا دقيقًا، وفتشوا أوراقي الخاصة ورقة ورقة، والصور الشخصية. وكانت ضابطة الحدود الأنيقة الشقراء تفتش بدقة وحزم وذوق، لكن بلا ذرة تهاون، وأعطتنا تصريحًا للحياة في برلين لمدة أسبوع، وأعطتنا ورقة بها تعليمات عن الأشياء الممنوعة، ومليون شيء ممنوع أن يدخل، ومليون شيء ممنوع أن يخرج. ورغم أنها حدود فرعية جدًا إلا أن بها عددًا ضخمًا جدًا من رجال البوليس الألمان. الحديث بمقدار، هنا تشعر حتى عظامك الداخلية بالنظام والقانون، وربما الإحساس بالتفوق الألماني، استمر هذا ساعة ونصفًا.

***

اليوم ٩ نوفمبر، دق جرس التلفون، فوجئت بمنى تتحدث، قالت:

. كل سنة وأنت طيب.

قالت:

. لقد كنت أيام العيد في الإسكندرية، لم أحتمل أن أقضيه في القاهرة بسبب هجرك لي.

قلت:

. ما هي أخبارك؟

قالت:

. سأنفذ أوامرك.

قلت:

. وما هي يا ترى؟

t.me/qurssan

قالت:

. سأتزوج كما نصحتني.

قالت:

. تقدم لي اثنان، الأول صيدلي من قريتنا، والآخر موظف صغير في القاهرة.

قلت:

. وأنت؟

قالت:

. لا أدري.

قالت:

ـ لا أحب أن أعود إلى القرية وأعيش فيها وأفضل الحياة في القاهرة.

قالت:

. ما رأيك؟

قلت بهدوء:

. لا أعرف.

قلت:

. هل اخترتِ؟

قالت:

. لم أختر بعد.

قالت:

t.me/qurssan

. جلستْ معهما.

قالت:

. ليست لديَّ مشاعر نحو أي منهما.

قلت:

. ومتى سيتم الزواج؟

قالت:

. بعد فترة.

قلت:

. عندما يحل العيد الكبير؟

قالت في رقة:

. ما زلت متضايقًا مني؟

سكتُّ. قالت:

. أرجوك لا تتضايق مني!

ألحت، قالت برقَّة شديدة:

. أرجوك لا تحزن يا حبيبي. أنا لا أحتمل أن تكون حزينًا!

قالت:

. وأنتَ ما هي أخبارك؟

قلت:

. أنا أكتب، وأرجو أن أنتهي من كتابة هذه الرحلة، وأرجو أن يكون كتابًا جيدًا.

قالت:

t.me/qurssan

. أنا واثقة أنه سيكون كتابًا رائعًا.

قالت:

. أعصابي استراحت، والتوتر في حياتي انتهى، ولم أعد أشعر بشيء، وجهي أصبح رائقًا، هكذا يقولون لي، أرجوك حافظ على نفسك تمامًا.

* * *

انطلقت العربة بأقصى سرعة، مائة وخمسون كيلو في الساعة، دخلنا الأوتوستراد، وصلنا **«درسدن»**، أشارت فتاة، أوقفنا العربة، ركبَت، طالبة في كلية الاقتصاد، أعطيتها سيجارة، أعطيتها كأس ويسكي، شربت أنا أيضًا، رفض عمر، شربنا كأسًا أخرى، قلنا سنمضي أسبوعًا في برلين. «كريستين»، ألمانية، تزوجت وانفصلت، قالت إنها ليست شيوعية وليست مؤمنة. سألتني عن اليوم، قلت لها:

. اليوم ١٠ يوليو.

قالت:

. غدًا سيكون قد مر على طلاقي عام، تم طلاقي في يوليو ١٩٧١.

أخرجت من حقيبتها صورًا، صور زواجها الذي فشل، صورة زفافها، كانت مكتئبة في الصور وهي تتزوج، قلت لها ذلك، ضحكَت، أشعلت سيجارة، اتسعت الطرق وتشعبت، اللافتات تقودنا، اقتربنا، دخلنا « **برلين**»، قادتنا «كريستين» إلى قلب برلين، الساعة الثانية ظهرًا. قبل أن نصل إلى أكبر فنادق المدينة بلحظات، رأت صوري أنا ومنى، قالت:

. أنت أيضًا حزين ومكتئب.

أمطرت السماء، وقفت العربة أمام فندق «شتات برلين»، نزلنا لنتحدث إلى فريد بالتلفون، اشتد المطر، هرولنا، دخلنا القاعة الدافئة داخل الفندق، والمطر ما زال ينهمر في الخارج.

t.me/qurssan

لا أرغب في مواصلة الكتابة، توقفت عن الكتابة منذ ثلاثة أسابيع، ولا يهمني أن أكتب أو أن يقرأ أحد ما أكتبه، لم أعد أستطيع المواصلة، احتواني انهيار حقيقي، وطغى الحزن الذي بداخلي على أصابعي. غرق وجداني في مياه سوداء وحزن كئيب، لست أرغب في استعادة علاقتي بمنى مرة ثانية، وأحس بالعجز عن مواصلة الحياة بدونها. يحترق داخلي ويجن، لم تعد تصلح لي ولا أصلح لها، تفسخت العلاقة، وفسدت الحياة، وانهار العالم كله، لماذا يحدث هذا؟ أين الخطأ وأين الصواب؟ أرفض أن تكون الحياة هكذا، الحياة بلا معنى، مفرغة من الداخل، مشحونة باللاجدوى، مكتظة باللامعقول، قوانينها ليست شريفة ولا مستقيمة، لماذا هذه المعاناة المجدبة السخيفة المتكررة وسط طوفان من الأمراض والأوبئة والفتك؟ وفي ظل كل هذا عليَّ أن أعيش وأكتب وأقاوم وأنجح وأفشل، وأتلقى الأحجار التي تطحن صدغي وأذني وتشج رأسي! لا. لا أرغب في المواصلة، لا أجد سببًا واحدًا، حافزًا واحدًا، مبررًا واحدًا، لأن أحيا وأستمر ساعة واحدة. أمضيت ثلاثة أسابيع والحزن يسري في عروقي، وأنام وقلبي ثقيل، ممتلئ بالأسى الحقيقي، والآهات تمزقه وتهريه، لم أعد أحتمل، لم أعد أحتمل، عندما ضقت بالحياة واقتربت في يونيو الماضي من الانتحار أيضًا، قررت فجأة أن أغادر، ركبت القطار والمركب والعربة من القاهرة إلى الإسكندرية إلى بيروت إلى تركيا إلى أوروبا إلى «فينيسيا»، وأغرقت نفسي في الطرق والأسفلت والشوارع، وامتلأت عيناي بالبيوت والمطر والسحاب والناس والأشجار والجبال والهضاب، وأمضيت ما يقرب من شهرين، وعندما عدت كنت ممتلئًا، لم أعد أمالئ ولا أتواطأ مع نفسي. قلت لمنى:

. لماذا تستمر علاقتنا وهي قد انتهت بالفعل منذ شهور طويلة؟ لم أعد أشعر وأنا معكِ بمشاعري السابقة، بالصدق والشحنة والاكتشاف. أصبح الأمر مهترئًا، ويجب أن يتوقف.

قلت:

t.me/qurssan

. فلنفترق، ولتبدئي حياتك مع أي إنسان آخر حتى لا تضيع منك الفرصة.

قالت:

. سأنفذ رأيك.

في آخر مرة كانت أصابع يديها قد تجمدت، لم تعد غضة، لست أنانيًا، أحب الأشياء عندما تكون طازجة وألقي بها عندما تتجمد، لقد كرمش الكذب والتزييف جلدها وما تحت جلدها. وفي آخر مرة قبل أن نفترق، التقينا، جلسنا في صالة منزل صديقتنا، شربنا قهوة. قالت منى بدهشة:

. لم تُقبَلني!

قبَلتها، تحدثنا قليلًا، قالت:

. تعالَ.

دخلنا حجرة النوم، فتحنا الراديو، انسابت الموسيقى، خلعت حذائي وملابسي، دخلت الفراش، خلعَت ملابسها أمام المرآة، سوت شعرها، وضعت برفان، ونامت بجواري، فردت ذراعها، ووضعت رأسي على ذراعها، سالت دموعها، قالت:

. لم تعد تحبني!

كانت تعرف أن الدموع تثيرني وتدغدغ شجني، قلت لها:

. لا أهمية للكلام.

مسحت دموعها، قبَلتها، احتضنتني وشعرَت بجمودي، لاحظت نفسي، تأزمت أكثر، واصلت تقبيلها لأحرك داخلي، صممت أن أواصل، تحرك داخلي، التصقنا أكثر، وبسرعة حتى لا أتذكر أو أتراجع تدفقت داخلها، وتنفست الصعداء، وابتعدت قليلًا ونمت على ظهري وقد استرحت وكأنني اجتزت محنة. قلت بيني وبين نفسي: لن أكرر هذا معها مرة أخرى، لأنني لن أستطيع، لقد تحول

t.me/qurssan

أروع شيء إلى سخافة حقيقية، وتحول الجنس المشبوب إلى أداء وإلى واجب وإلى تكرار ممجوج وفقدَ جوهره الحقيقي. قلت لها بوقاحة حقيقية:

. لقد تغيرتِ، ما الذي حدث لكِ؟

تصورَت هي أنني أتهمها بخيانتي مع الآخرين، تركتها تتصور الإهانة، ولكن الأقسى والمؤلم أنها تغيرت فعلًا، وأصبح كل شيء مبتذلًا ويجب أن يتوقف. بعد خمس سنوات كاملة، كانت كل حياتي، كل لحظة، كل دقيقة، بعد هذا كله تجف الحياة وتموت، واستطاعت بعد شهر واحد من الفراق أن تغرق حتى قمة رأسها مع رجل آخر، أليس هذا غير معقول؟ ما الذي حدث في الدنيا؟ وما الذي تبقى؟ وما الذي هوى؟ وأي حياة هذه؟ وكيف سأواصل حياتي؟ لن أحاول يومًا واحدًا أن أقيم جسرًا بيني وبين امرأة، ولن ينبض قلبي مرة أخرى أو ينتفض، ولكني عاجز عن الحياة دون أن أتدفق بالحنان داخل امرأة، أقترب منها وأفهمها وأحنو عليها وأحتويها وأحبها، لن أسمح بأن يحدث هذا أبدًا مهما كانت الظروف. عاجز عن المواصلة، عن السير، عن الحديث، عن الكتابة، عن الانتهاء من هذه الصفحات، عن الانتهاء من هذا كله. ما أبشع هذا وأقساه وأعنفه... ما أقذر كل شيء في الدنيا وأسوأه. ما أحقر هذه الحياة كلها من أولها إلى آخرها وإلى الأبد.

* * *

أقف داخل فندق «شتات برلين»، كان المطر ينهمر، صممت «كريستين» ألا تفارقنا، أعطيناها رقم تلفون فريد، دق الجرس، لا أحد يرد، المطر ينهمر، شربنا قهوة، تحدث عمر، تجاوبت «كريستين» معه، اخترت الصمت، كنت في هذه اللحظة من المستحيل أن أتجاوب مع أحد، أضحك وأكتئب في لحظة، ولا يرضيني شيء، بيني وبين نفسي، ليست لديَّ رغبة في تجربة عابرة مع امرأة، غير متجانس، في داخلي تعرجات وبراكين ملتهبة وميتة، واصل عمر، واصلتُ الانزواء، مصممة «كريستين» ألا تفارقنا، جربنا التلفون مرة ثانية بلا فائدة، مضت ساعة، اقتربا

t.me/qurssan

أكثر، عمر و«كريستين»، وأنا منعزل، في هذه المرة أجاب التلفون، صوت فريد، ضحكث، قال:

ـ سآتي فورًا، أعظم شيء في الدنيا أن نلتقي.

احتضنث صديقي وقبّلته، «إنجريد» أيضًا معه، ركبت أنا مع «إنجريد» صديقته في عربتها الصغيرة، وفريد وعمر و«كريستين» في عربتنا «الفولفو» الضخمة، سرنا، المطر ينهمر، الشوارع تمحو ملامحها الأمطار، لقاء حار مع «إنجريد» صديقتي، نموذج حقيقي وصادق.

وصلنا المنزل، صعدنا، كانوا قد أعدوا الورد، فتح فريد إحدى الزجاجات، ما أجمل الألفة والصداقة والأمن والحب والاطمئنان، الدنيا مظلمة من السحب المتراكمة، الأنوار الكهربائية تضيء، جن فريد من اللقاء، يهفو إلى الصداقة، إلى الحديث، جلست «كريستين» غريبة تمامًا وسط الألفة، لا تريد أن تذهب، جاءت «إنجريد» بالطعام الساخن، أكلنا، أطريت طريقتها، كما هي، «إنجريد» التي رأيتها كثيرًا وجلست معها ومع فريد في القاهرة، تحدثنا عن الأشواق والحب والرحلة، عن زوزو وصوفيا وتركيا وفيينا والطرق والفنادق والمدن، شربنا، استمعنا إلى أغنية مصرية، ثار شجن فريد وشوقه إلى القاهرة، نزل فريد وعمر ليوصلا «كريستين» إلى منزلها، واصلت أنا و«إنجريد» الحديث، كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، جاء عمر وفريد، ودخلنا لننام، قال عمر:

ـ كانت كريستين رقيقة جدًّا، عندما وصلنا إلى منزلها أمسكت بيدي وجذبتني نحوها، وانهالت عليَّ بالقبلات، بادلتها، ارتمت في أحضاني وبكت، ضممتها وأنا مرتبك، أغرقتني بالحنان، وضعت يدها داخل ملابسي، ودغدغث بيدي ظهرها وأنا أضمها، صعدنا إلى حجرتها، واصلت احتضاني، فوجئث بأنها تخلع ملابسها، جذبتني إلى الفراش، خلعت ملابسي، أغرقتني بالقبلات، ضممتها، أحسست بملمس جسدها مثل «القطيفة»، حاولت، ولكني لم أستطع، ظللت أحاول دقائق هائلة دون جدوى، سلمت بيني وبين

t.me/qurssan

نفسي بالعجز، نزلت دمعة على خدها، تركنا الفراش، ارتديت ملابسي، لم تلتقِ عيوننا، كنت مشفقًا عليها أكثر من إشفاقي على نفسي، أحسست بمشاعر متداخلة، ذوقها ورقتها وجرحها، وبعجزي عن المبادلة، هل السبب زوجتي؟ هل الجنس مجردًا مستحيل لرجل ناضج غير داعر؟ لكني كنت أريدها عقليًا، أما مشاعري الدفينة التي لا يصل إليها إدراكي وفجور عقلي فهي لم تتلاقَ، هذا هو كل ما حدث.

في الصباح، نزلنا، ذهبنا إلى مطعم، جلست أنا و«إنجريد» على منضدة، جلس فريد وعمر في ركن آخر، قالت «إنجريد»:

. على هذه المنضدة منذ عام ونصف جلست أنا وفريد، واعترف لي بحبه، ووقتها قلت له: سنواجه مشاكل معقدة. والآن نحن في قلب المشكلة، فريد يحب بلده ومهنته، ولا يمكن أن أثنيه عن كل هذا، بل لا أقبل أن يضحي بفنه الذي يمارسه في بلده، وكذلك حبه لمصر ولأصدقائه.

قلت:

. وأنتِ؟

قالت:

. لقد حصلت بالفعل على الطلاق منذ فترة، لكني عضو في الحزب هنا، ومن المستحيل أن أهجر حزبي وعملي وبلدي، ولقد تنبأت منذ اللحظة الأولى بكل هذا وقلته.

قلت:

. وماذا بعد؟

قالت:

. لا أعرف، ولكن من المستحيل أيضًا أن ننفصل، هذا دمار لنا، ومن المستحيل أن نظل معًا.

انتهى الطعام، عدنا إلى المنزل، في المساء ذهبنا إلى الأوبرا، لم

t.me/qurssan

نجد تذاكر. ذهبنا إلى منزل صديق ألماني، أمضينا وقتًا جميلًا، التقيت به من قبل في القاهرة، ما أعذب أن يلتقي الناس من أبعد الأماكن وأن يتحابوا، نزلنا، سرنا في شوارع برلين، الساعة متأخرة. توقفنا أمام تمثال «لينين». الشوارع فارغة، المدينة مضيئة، الصمت المؤقت يخيم، الهدوء، النظافة، الهواء منعش، السماء صحو، الحياة مختلفة تمامًا ولكنها موحية. عدنا في الثالثة صباحًا، السماء مضيئة، النهار قد بزغ، فريد يلبس فوق عينيه نظارة قماش سوداء، غريب أن ينتشر الضوء هكذا مبكرًا جدًّا قبل الفجر، قهوة الصباح رائعة، أعددنا الإفطار، ضحكنا، نزلنا، برلين في الصباح مدينة رائعة، النظام صارم، وصلنا خارج المدينة، توقفنا عند بحيرة، خلعنا ملابسنا، نزلنا في المياه، لعبنا بالمضارب، تحدثنا، تذكرت «إنجريد» القاهرة، طرقاتها وشوارعها، منزلها بحي المهندسين، ذهبنا إلى متحف «البرجامون»، يضم حضارة مضت عليها آلاف السنين، الآلهة القديمة وأسوار المدينة التاريخية، مهارات الإنسان في تماثيله ونقوشه وعبوديته للمجهول، الناس الذين مضوا، معاناتهم، قسوتهم ورقتهم، خرجنا من المتحف، غسلنا اليوم كله، أصابتنا الدهشة ونحن نرى عالمًا متكاملًا حقيقيًّا اندثر، عبرنا مجرى من المياه أمام المتحف، انطلقت العربة نحو سور برلين، دخلنا حجرة الحدود أنا وعمر فقط، أعطيناهم الباسبور، كتبنا الأوراق لنعبر إلى برلين الغربية، نقف في طرقة مبنى صغير، مفتوحة من الجانبين، الصمت شامل، تصبح رقمًا، وينادي الضابط، سرنا خطوة، أخذنا أوراقنا، عبرنا حتى نهاية الطرقة ثلاث خطوات، خرجنا من الباب، وجدنا أنفسنا في فناء صغير ينتهي ببوابة صغيرة، وقفنا أمامها، سلمنا أوراقنا إلى الضابط، رآها وحيانا، تفتح البوابة وتقفل، وجدنا أنفسنا في **«برلين الغربية»**، بعد خطوات رأى أوراقنا ضابط غربي، سرنا خطوة وجدنا أنفسنا في قلب الغرب، سارت العربة، الضجيج هائل، الزحام، كل شيء مختلط، الحياة صخب، العربات مسرعة وجنونية، تمتلئ بالتوتر وأحيانًا بالخوف، واستدرنا، توقفنا، ركبنا العربة، كنيسة شامخة رمادية مشروخة نصفين، مدمر نصفها، وبقي النصف الآخر، دمار الحرب والقنابل الماضية، أمام الكنيسة

t.me/qurssan

المشروخة مئات من الشباب «الهيبيز»، الذقون الطويلة، العقود والتمائم يلبسها الشبان على صدور عارية. سرنا حتى كلية التكنولوجيا، دخلنا، التقينا بصديق، صعدنا لنأكل، ذهبنا إلى مبنى الكمبيوتر الذي يعمل فيه، هذه الأسطوانة الضخمة التي تدور بسرعة خرافية هي ذاكرة العقل الإلكتروني، حضارة اليوم وعجلة هذه الحضارة وحساباتها هنا. خرجنا. حديقة صغيرة حول مدرجات الكلية، الطالبات يجلسن على الحشائش منذ ألف سنة، الفتاة تحتضن وتُقبِّل وتحب وتأكل وتدرس وتلعب في ذاكرة العقل الذي يدور ويلف، واصلنا الخروج، توقفنا أمام مبنى صغير، شربنا بيرة، دخلنا محلًا يبيع الكتب الجنسية، نزلنا ثلاث درجات، وجدنا أنفسنا في صالة عرض صغيرة، بدأ الفيلم، رجل يعالج نفسه من العجز الجنسي، يدخل مع مساعدة الطبيب، عاريين، يحاولان، يتأوهان، يفشل، يستخدم أعضاء الذكور الصناعية، فتاة تمارس الجنس مع فتاة أخرى، خرجنا من القاعة إلى الشوارع المزدحمة، توقفنا أمام أحد المحلات الكبرى، عشرة أدوار، جميع الأشياء التي يحتاجها الإنسان أو لا يحتاجها في الداخل، من لحم الخنزير حتى مشدات صدور النساء. توقفنا في شارع عريض تقف فيه فتيات، الفتاة تمضي الساعة بثمن محدد، واصلنا الفرجة على الشارع بأكمله، الفتيات في عمر الزهور، الجمال البض الحقيقي في ذروة امتهانه. ودعنا برلين الغربية، سرنا حتى مبنى الحدود، بعد لحظة أصبحنا في قلب برلين الديمقراطية، الضوء خافت في الشوارع، والهدوء يسيطر على الحياة، توقفنا أمام المنزل، صعدت أنا، وذهب عمر ليقابل صديقته «كريستين»، جلست أنا وفريد و«إنجريد»، فتحنا التلفزيون على الغرب، الريبورتاجات السياسية تهاجم وتسخر من الاشتراكيين، إعلانات لا حصر لها، تحذير من الجو في الغد، عدنا بمفاتيح التلفزيون إلى الشرق، مغنٍّ أمريكي يغني للزنجية «أنجيلا ديفيز». وصل عمر، التقى بها، ركبت معه العربة، قادته إلى أحد المحلات، دعاها للعشاء معه، أمضيا وقتًا، شربا، قالت له:

.فلنتفرج على بعض الأشياء الخضراء في برلين

t.me/qurssan

جلسا على الحشائش، ضمته بذراعيها، الشفاه تتصل في قبلات حارة، انطلق بها لتوصيلها إلى المنزل، توقفت العربة، انهمرت دموعها، دموع حقيقية لم تذرفها في حياتها، من الشوق والعجز عن الوصول، رفض عمر أن يصعد معها، دمرته دمعتها، ولكنه كان واثقًا أن شيئًا لن يحدث، مشكلته أنه صادق مع نفسه، فهو يعلم جيدًا أنه سوي مع زوجته إلى أقصى حد، فهو رجل طبيعي، ولكن في مداره الذي يسبح فيه، مع نجمته التي يحبها، مع زوجته، واكتشف نفسه أكثر، ولقد يتعرف الإنسان على نفسه لحظة السخونة واللهب يسري في الدم، ولكن الإنسان لا يدرك بقدر ما يحس.

سار عمر بالعربة وحيدًا، بجوار سور برلين الذي يفصل ويقسم المدينة، السور الصلب الرقيق المحاذر الحاد كالسكين، المغروز في الأرض، والذي لا يرتفع أبعد من قامة الإنسان بقليل ولكن أحدًا لا يجرؤ على اجتيازه وإلا صعقته نيران الحراس. في ليلة واحدة، نام الناس ككل ليلة في بيوتهم، وفي قلب الليل كان رجال الحزب وشبابه قد سوروا المدينة البرلينية الغربية، وصحا الناس ليجدوا أنفسهم في مواجهة السور، وانقلبت الدنيا، وقامت وقعدت، وظل السور قائمًا وبه فتحات محسوبة، وعلى كل إنسان أيًا كانت جنسيته أن يبرز أوراقه وأن يحصل على إذن محدود لكي يخرج أو يعود إلى المدينة، وعاش السور، وهو يكاد لا يفصل شيئًا عن شيء في حقائق الأمور الطبيعية. فالشوارع ممتدة كما هي ولم يتغير شيء طبيعي على جانبي السور من الحياة الممتدة منذ عشرات السنين، ولكن السور قسم الشوارع، البيوت والدكاكين وخطوط الترام وكل شيء أصبح جزءين، الشرق والغرب، ولكنه أيضًا ظل ممتدًا وحقيقيًا!

* * *

عندما وصلت «إنجريد» إلى القاهرة منذ ثلاثة أعوام مضت، كان زواجها نفسه قد ذوى، ورغم قدرتها الفائقة إلا أن النظام قد أفلت تمامًا. ففي البداية وهي شابة صغيرة تدرس اللغات واللهجات الشرقية، تعرفت على زوجها في معهد دراسة اللغات، وصممت

t.me/qurssan

عليه وتزوجا، وبرلين مدينة قاسية وبؤرة صلبة، دمرتها الوحشية النازية، وأعاد بناءها ورصف شوارعها وكباريها الألمان أنفسهم، أبوها وأسرتها ناضلوا حتى أعماق السجون ضد النازية، وعاشت «إنجريد» هذا كله، والتحقت بالحزب. كان للحياة رحيق لحظة تزوجت وأنجبت، وكان فيها شاعرية النضال والمعنى البناء بالرقة والمُثل الرومانسية والحب العارم للحياة، وتركت الحرب داخل زوجها الأنقاض والهدم والأنواء، ذبلت العلاقة بينهما وتحولت إلى تناقض واحتقار، وأصبحت الحياة مستحيلة واستمرارها عبثًا، عشر سنوات تراكم فيها الاحتقار وانسدت كل السبل. والمرأة الأوروبية تبدأ الحياة مبكرة، وفي الثلاثين تتعقد الأمور على نحو ما، واستمرارها بعد الثلاثين قبول واستسلام ضروريان، العلاقات الزوجية والإنسانية تصبح شكلية ومفرغة، ولكن الأفضل أن تستمر، وإذا انقطعت فهو دمار اسمه الوحدة، الثلج، السماء الرمادية، القتامة، العزلة، ندرة التلاقي الجنسي والعاطفي والإنساني، وبتركيز شديد مصير أسود متخشب. وجاءت «إنجريد» إلى القاهرة وحيدة مع أطفالها لتواصل عملها، مستشرقة، لتشرب من سمرة النيل وشمس أسوان، وتعاني الدهشة بين معابد الأقصر. وبجوار الأقدام الصخرية الممتدة الهائلة لأبي الهول التقت بفريد، تحدثا مرة، تبادلا الكلمات، سارا معًا، تكرر اللقاء، لم تحدث في حياته من قبل هذه الهزة. لم يكن قادرًا على التلاقي المشبوب الحقيقي، كانت رقته دفينة، قدرته على التعبير تتجسد في عجزه عن الإفصاح، يجهل داخله ويحاول التعامل مع وجدانه بشروطه هو دون أن يتعرف على دروبه الداخلية، مصممًا على أن يحتفظ برومانسيته رغم إدراكه أن لا رومانسية هنا أو هناك. وطوال اللقاءات التي حدثت كان حائرًا: تُرى كيف تفكر؟ إنه يشعر فقط أنه يحتاجها بقوة، بل يتمنى أن يعرف: هل تعرف هي؟ هل تحس به؟ كل لفتة، كل لمسة، كل كلمة، كل نظرة، كل تساؤل أصبح له مغزى ومعنى وتفسير، يضيف آلاف المشاعر ويحيي في النفوس وفي ملايين الشعيرات الدموية توهجًا يجعل الرأس والقلب والأطراف دافئة ساخنة. ولم يعد يحتمل هذا كله رغم أنه يستعذبه ويعيش فيه،

t.me/qurssan

وكان لا بد أن تعود إلى برلين، وكان في وداعها في المطار.

عندما حلَّقت الطائرة، وابتعدت، أحس بالتداعي والانهيار، وعندما عاد إلى عمله أحس أنه عاجز تمامًا، وعليه أن يواجه مشكلته، ومر شهر وقطع تذكرته وانطلق إلى برلين.

التقى بها في اليوم التالي لوصوله، لم يعرف كيف يتحدث، ارتبك تمامًا. في اليوم التالي تحدث، اعترف. قالت له:

. أنا أحسست بك وأعرف، المرأة تعرف وتحس، لكن ماذا أفعل؟ أنا أيضًا أحببتك، أحسست برقتك واهتمامك وعنايتك، ولكن كيف يحدث كل هذا؟ أنا في برلين، حياتي في الحزب وفي بناء بلدي وتربية أطفالي، وقبل كل شيء أنا إنسانة أهفو وأحب وأتمنى وأشتاق وأريدك. أعرف كل ما تعجز عن التعبير عنه، وتصور أن هذا يعجبني، أنت تقودني إلى داخلك لكي أدرك بنفسي بدون كلمة أو حرف مشاعرك نحوي.

كانا يجلسان على مقعد، أمامهما حشائش تتخلل أشجار الغابة، وبكيا، وتحاضنا، وظلا في احتضان طويل كالنار، كلهيب يحرق الدنيا ويضيئها، كقرص الشمس عندما تعيش على حوافها، وآلاف الملايين من ألسنة النار واللهب والضوء والحرارة تُسكب وتندلق داخلها. كان الحب عملاقًا بقدر الألم واليأس والتحليق في الفضاء والإحساس بالوعورة، ولكن كيف يقاوم الإنسان الرغبة العارمة في الالتقاء؟ وكيف يمكن أن ينسحبا وقد أصبحا فوق الذروة؟ لقد انصهر كل شيء، وأصبح شيئًا واحدًا جديدًا، مثل شجرة خضراء مورقة أضيفت إلى آلاف الأشجار في الغابة الممتدة.

كان البيت الذي يعيشان فيه يبعد عن سور برلين خطوات قليلة، عندما تنظر من النافذة يواجهك السور تمامًا. كان فريد يعاني من مشاكله في برلين التي تهدد بأن يفقد الأمن والحياة والحب. وعاشت «إنجريد» أجمل أيام حياتها مناضلة من أجل أن يستمر الأمن لحبها، ومضى عام، وفريد ينام الليل كله عاريًا حقيقيًا، تحتويه إنسانة حقيقية وتغرقه داخلها بالحنان والحب والجنس

t.me/qurssan

والتوافق، عاش أجمل أيام حياته يعمل ويحب، ولكن القلق كان سحابة رمادية كثيفة لا تتحرك ولا تهطل.

* * *

سرنا بجوار سور برلين، دخلنا محلًا للسوق الحرة، اشترينا زجاجات البراندي والنبيذ والسجائر. عدنا، واصلنا السير بجوار السور، اخترقنا الشوارع، اشترى عمر خيمة، أعدت «إنجريد» لوازم الحياة داخل معسكر الخيام، البن والسكر والمربى، السكاكين وفتاحة الزجاجات، البطارية، الشنط، البطاطين... ونزلنا، أعددنا العربة، وضعنا الأشياء، قاد فريد العربة. قبل أن نتحرك بلحظة تحدثت «كريستين» بالتلفون مع عمر، قالت له:

. أريد أن أراك ولو للحظة.

قالت:

. أستسافر حقًا الآن؟

قالت:

. هل أستطيع أن أسافر معكم؟

قالت:

. كيف تمضي هكذا وتتركني؟!

قالت:

. اكتب لي أرجوك!

انطلقت العربة، كانت الشمس تبعث بأشعتها الرقيقة، واصلنا السير وسط شوارع برلين، حول أسوارها، وبيوتها الشاهقة الجديدة، وتماثيلها الشيوعية، والرسوم على جدران البيوت، الشوارع المتسعة، النظام الصارم، توقفنا أمام منزل «كارولين» صديقة «إنجريد»، صعدنا إلى المنزل، شربنا الشاي. قال أبوها:

. أنا لا أتحدث الإنجليزية، ولكن بعد ثلاث كؤوس من البراندي

t.me/qurssan

أتحدث الإنجليزية بطلاقة.

ضحكنا، انضمت إلينا «كارولين»، ركبت معنا، سارت العربة تسابق الغروب وشعاع الضوء قبل أن يختفي، خفتَ صوت الراديو، صوت انطلاقنا على الطريق يملأ العربة من الداخل ويضغط على الكلمات وتخفُت. بجواري «كارولين»، في طريقنا إلى «درسدن» وآخر حدود ألمانيا، ذراعها تلمس ذراعي، وأنا أضع ذراعي خلف ظهر المسند، لحم ظهرها يداعب ذراعي العارية، الطريق رائع، الشمس تلقي أشعتها فوق شواشي الأشجار. دخلنا مدينة «درسدن»، ضاق الطريق وأنا أحب الطرق الضيقة التي تحف بها الأشجار.

* * *

كنت داخل عربة منى الحمراء، وكان قريبها يقود العربة، وعلى المقعد الخلفي كنت أجلس، وبجواري منى. كنت أضع يدي خلف ظهر المسند، كانت تسند رأسها على ذراعي، كانت أصابعي تتخلل شعرها وتمسك بفروة رأسها وتعبث بها، كانت عيوننا تلتقي، وتمتلئ عيوننا بولهٍ حقيقي ونشوة. كانت أصابعي تهبط برفق على رقبتها وظهرها الساخن، وهي تلصق ذراعها بذراعي وعربتها تنهب الأرض، والظلام يطبق على العربة، وصوت الطريق نغم حلو رتيب مع اندفاع العربة والظلام المضيء في خفوت يلصقني بها أكثر فأكثر ويدفئ داخلي. كانت تلقي بكلمات قصيرة ترددها مع صوت راديو العربة، كانت أغنية لأم كلثوم رتيبة سمعناها ألف مرة، ولكنها كانت نغمًا جديدًا حلوًا. أشجار الطريق سوداء، ولكن لها رائحة الربيع، والنبت الأخضر البازغ على سيقان الأشجار العارية ينبئ بالأمل، وأنا أرى الحياة تولد وتتجدد على السيقان القديمة، كان صدرها يرتج، والربيع الحقيقي يسري في الحياة كلها، والعربة تواصل السير، والرغبة تتدغدغ وتتجمع وتتلاقى في شوق يكبر ويكبر ويمتزج بالخضرة النابتة على أشجار سوداء فاحمة الظلام في الطريق إلى القاهرة.

t.me/qurssan

وتجاوزت العربة «درسدن»، وامتد الطريق، الأشجار والهضاب الخضراء على حوافه، وبدأ الليل يخيم، وأحببت الظلام، العربة تضيء الطريق، ولكنه الظلام. الدفء يسري، «كارولين» بجواري، ذراعها طازجة، صدرها يمسني، أحببت الظلام أكثر، واصلنا السير، الطريق يضيق أكثر ولكنه جميل. سرنا، بدأ التوتر، اقتربنا من الحدود الألمانية-التشيكية، كنا نحسب حسابًا مُرًّا للحدود الألمانية، فلنا تجربة قاسية معهم. اقتربنا أكثر، توقفنا، جاء أحد الضباط وذهب، جاء آخر، انتظرنا أكثر من ساعة، فتشوا العربة وختموا الأوراق. انطلقنا في الحادية عشرة مساء، دخلنا الحدود التشيكية، قدمنا أوراقنا، مرت لحظات، ختموا الأوراق. سرنا، أصبحنا داخل الأراضي التشيكية، قررنا أن نبيت في أول مدينة، أحببت ذلك، فهي مدينة نمنا فيها من قبل، **«تبليتسي»**، المدن التي تبعد عن الحدود قليلًا تشع داخلك الحب والدفء، والتوتر الإنساني الجميل. دخلنا المدينة، بحثنا عن الفندق، نفس الفندق «دي لسكي»، كنت سعيدًا، تصورت أنني سألتقي مرة أخرى بعاملات الفندق، دخلنا حجراتنا، شربنا. في الصباح سرنا في شوارع المدينة، اشترى فريد كتابًا عن الفن، فارقنا المدينة، انطلقنا في الطريق إلى براغ، الطريق رائع، الشمس والأشجار والطريق والخضرة، سرنا وسط هذا كله، الطريق يكتسي بالاختلاف والانبهار، الطريق يسيطر على نفسي، ارتفع بنا وانخفض، كنا نسير فوق هضاب الطريق وتحتنا الغابات، كان الهواء يتدفق من شباك العربة، نظرت إلى جواري، كانت «كارولين» تلبس رداء بسيطًا، وتتحدث مع «إنجريد»، كنت ملتصقًا بـ«كارولين». وقع بصري على صدرها، كان الهواء قد فتح رداءها عند رقبتها، وفجأة رأيت صدرها العاري، لم تكن تلبس مشدًا. كان تحت عينيَّ رائعًا وطازجًا، ينحدر من فوق مرتفعًا شامخًا صغيرًا، لونه أسمر، متماسك وقوي دون أن يستند إلى شيء. تمنيت أن أعضها في صدرها. واصلت العربة السير إلى الأمام، اقتربنا، حزنت، اقتربنا أكثر، حزنت أكثر، كان الإحساس بالقهر والعجز والطرق المسدودة يملأني، واصلت الاستمتاع داخل نفسي، ذراعي تستند إلى ذراعها، وفخذها تلاصق فخذي،

t.me/qurssan

وعيناي ساكنتان على ثدييها. هدأ الهواء والتصق ثوبها بجسدها واختفى صدرها خلف الرداء... ووصلنا مدينة «**براغ**»، سرنا في شوارع المدينة الضيقة، تهنا، سألنا، آخر الأمر وصلنا إلى الاتحاد العام للعمال، قابلنا صديقنا «كومراد طوسون»، تحدثنا معه ومع زوجته المصرية السمراء الهادئة، ذهبنا إلى مخيم حوله منحنى وأشجار، يجري أمامه نهر صغير، المكان يمتلئ بالخيام المنصوبة، عثرنا على مساحة صغيرة كافية، بدأنا ننصب فوقها خيمتنا. في البداية كان الأمر معقدًا، المسامير والحبال كثيرة ومعقدة، حاولنا وفشلنا، أمضينا في الارتباك ثلاث ساعات، ضقنا بأنفسنا، دمرّنا الإرهاق، في النهاية نجحنا، بنينا الخيمة، رتبنا أشياءنا، امتلأنا بـالتعب والإرهـاق. عنـدما اقتـربت السـاعة مـن منتصـف الليـل تراكمت الأحزان والسخافات، قالت «كارولين» إنها لا ترغب في النوم داخل الخيمة، قالت إنها تختنق وتريد أن تنام وحدها داخل العربة، وانطلقَت في الطريق داخل المخيم، ذهبت خلفها، رجوتها، ناقشتها، رضخت في النهاية ووافقت، احتضنَت عروستها ونامت. في الصباح ذهبنا إلى البوليس لنحل مشكلة الفيزا. المكان مزدحم وسـاخن ومقبـض، بعد الانتظار الطويل دخلنا، رفض البوليس، عندما ألححنا عوملنا بفظاظة، عدنا إلى اتحاد العمال مرة أخرى. خففت السيدة المختصة من ضيقنا، وحاولت مساعدتنا واتصلت بالبوليس، انتظرنا في الممر البشع الطويل، دخلنا، حاول رئيس البوليس أن يثير مشاكل كثيرة، دق جرس التلفون الذي أمامه، رفع السماعة وتكلم بصوت هادئ هامس رقيق، مناقض بطريقة مذهلة لجانبه الخشن الباتر الذي يتعامل معنا به. طويل، رفيع القامـة، وجـهه تبرز منه العظام، كل هذا ذاب في التلفون، ربما رئيسه المجهول، كانت «كارولين» تنتظر في الخارج مع «إنجريد»، سألَت بلهفة، قلت لها:

. لقد حلت المشكلة.

كانت سعيدة جدًّا، قبّلتُها من وجنتها، ضحكَت، أصبحنا أصدقاء، ظلت مرحة حتى المساء.

***

t.me/qurssan

الحب في عنفوانه، صممَت أن تحتفل بعيد ميلادي، أهفو أن أمضي الليل بطوله معها، وكان هذا مستحيلًا، قالت إنها رتبت الأمر، ركبنا القطار وهي في قمة النشوة، أكلنا وشربنا شاي الصباح في القطار، كانت تضع الطعام في فمي، كل ذرة من مشاعرها غارقة في السعادة، لا قوة تستطيع أن توقفها، وصلنا، دخلنا الشقة، قالت:

ـ هذه حجرتي التي أمضي فيها الصيف، هذا فراشي، هذه بطانيتي الحمراء، هذا دولابي ضع ملابسك فيه ونم على فراشي، لكي أظل أتذكر دائمًا كلما نمت فيه، لن أنسى أبدًا، لقد سورنا هذه الشرفة بالزجاج، تعالَ لنأكل فيها.

موج البحر أمامي، لونه أخضر فاتح، لا نهاية له. الأمواج هادئة وصوتها يتناغم مع صمت البيت وأحاديثنا، قالت:

ـ تعالَ نسترح.

خلعت حذائي وملابسي وتمددت على الفراش، نامت بجواري، تحدثنا، ضحكنا، احتضنتني، كل خلية تتجدد وهي تتلامس وتخضر، تتلاقى مع صدرها ورقبتها وأصابع يديها ورائحة كفيها، ويدي تتحسس ظهرها الحريري، وتلتحم خلايانا، وتصبح روحًا واحدة، جسدًا واحدًا يانعًا مورقًا تلتحم حياته الداخلية وعروقه، ويظل ينمو داخلنا التجدد الجنوني من الالتحام، واللذة تنمو وتخدرنا، وتنمو وتنمو وتتصاعد وتملأ المكان، والسعادة النورانية هي الفراش تحتنا، ويولد من الألم الإنساني الخدر واللذة الجنونية، وواصلت تضمني بكل قوتها وأنا أحتضنها، ووجنتها فوق خدي وشعرها الغزير ينسدل على ملامحي، وصوت أمواج البحر اللانهائي يتلاقى مع النشوة والالتحام والحب والرغبة. وفي المساء قالت:

ـ سأرقص لك، تعالَ نحتفل بعيد ميلادك.

وتمايلت في نشوة، وهي ترقص، أطفأنا النور، أضأنا شمعة، رقصت مرة أخرى على ضوء الشمعة، أطفأنا الشمعة، أضأنا النور،

t.me/qurssan

جاء الليل، رقدنا مستيقظين طول الليل، نستمتع بالليل كله معًا، امتلأت الحجرة بأنفاسنا، واختلطت وأصبحت نسيمًا واحدًا رقيقًا، وكان صوت البحر يهدهد داخلنا، أمواجه تعلو وتهبط وتصطدم بالشاطئ الصخري وتعود وتتماوج وسط مياه البحر.

أهدتني منى أشياء كثيرة، وفي ذات يوم فوجئت بأن معها عقدًا من الماس يمتلئ بالفصوص الصغيرة، قالت:

. هذه هدية زواجي.

ذهبنا إلى الصائغ، باعته، اشترت لي بثمنه شيئًا غريبًا لم أكن أحلم به، غادرنا الإسكندرية وعدنا إلى القاهرة، ألحت عليَّ أن أذهب إلى أخيها وأطلب منه الموافقة على زواجنا، وذهبت، تحدثت معه طويلًا بهدوء، رفض، قال:

. كيف أوافق على زواج منى من مسجون سابق لا يؤمن بالله؟

وأثيرت زوبعة داخل أسرتها، ورفضت الأسرة رفضًا قاطعًا، وهددها أخوها: إذا لم تقطع علاقتها بي، فسيبدد لها كل ثروتها وأملاكها التي يديرها لها، وقال إن زواجنا مستحيل. ومنذ تلك اللحظة تأكدت منى، ودون أن تعترف لي، أننا طريقان لن يلتقيا، إلا إذا تخلت هي عن كل شيء، لتحتفظ بحبنا، وتتوافق مع داخلها ووجدانها، وتنسجم مع كل ذراتها الغارقة في الحب. منذ تلك اللحظة ترسبت في وجدانها فداحة التضحية التي عليها أن تقدمها: أن تترك أهلها وطبقتها وتقاليدها والأمن والاحترام الاجتماعي وأملاكها وشقتها الفاخرة في مقابل عواطفها. وكان عليها أن تختار، ولكن مَن أنا؟ أخرجتني من داخلها، ورأت تضاريس وتعرجات حياتي، قد أعيش معها عامًا، وأبتعد أعوامًا داخل غياهب المجهول. وكانت تعرف أنني لن أوفر لها الحياة السخية، فمن يدري؟ ففي لحظة قد أترك عملي في اصطدام مفاجئ. اختارت أن تواصل الحب متفادية الارتباط النهائي بي، واضطرت أن تمارس الكذب والزيف والتراجع والالتواء، وعادت دون أن تدري إلى البداية التي حدثت منذ عشرين عامًا، عندما التهبت مرة وهي في السادسة عشرة في حب كامل، ورضخت

t.me/qurssan

للزواج من رجل لم تره من قبل غير مرة واحدة أو مرتين، وبعد عشرين عامًا مضت عادت إلى نفس البداية حرفيًا، وأهدرت حلمًا جديدًا، وكأن الحياة لا تمضي خطوة إلى الأمام، ودارت منى دورة كاملة مع الكون، وتوقفت تمامًا عن التحليق.

* * *

توقفنا أمام واجهة الكنيسة لنرى «لعبة الزمن»، الساعة وهي تدق، ينفتح باب فوق العقارب، ويخرج من جوف الساعة عدد من تماثيل القديسين القدامى، يدورون حول أرقام الساعة، ويمسك واحد منهم، «ملك الموت»، مطرقة في يده، ويدق بها عدد دقات الساعة، ويصمت «ملك الموت»، ويهرول القديسون إلى جوف الساعة، ويقفل الشباك وتواصل الساعة سيرها، وينفض مئات الناس من أمامها، بعد الفرجة على «لعبة الزمن» المعلّقة في أعلى الكنيسة الأثرية.

مضى الوقت بسرعة، جاء صديقنا «طوسون»، انطلقنا لنرى إحدى القلاع القديمة، القلعة مرتفعة، صعدنا على أقدامنا طويلًا. وقتها كان صراع بين الإقطاعيين وبين أحد الذين يحلمون بالتقدم، وهرب المتمرد الصغير، ومن فوق القلعة قفز مليون إنسان، فوق هضابها وعلى السفح، دار صراع حقيقي مئات السنين بين القوميات المختلفة والهضاب والسهول والقبائل والأدواق والرؤساء، بل واللغات أيضًا. أرهقنا السير بين الأشجار والطرق المتعرجة، ذهبنا إلى الجانب الآخر من النهر، دخلنا الكازينو المرتفع، عزفت الموسيقى، رقص الناس، براغ من فوق الجبل الملاصق لها تبدو نقطًا صفراء مضيئة وسط الظلام الأسود. في الصباح ركنّا العربة أمام أكبر حمّام للسباحة في براغ، جميع العرايا تحت الأدشاش، الأجسام المعتدلة والملتوية، مئات يسبحون أمام عينيّ، الحمّام يعلوه الجبل مباشرة، وكأنه منحوت داخله، كانت «كارولين» رقيقة كعادتها كل صباح، طوقتُ خصرها بذراعي وضممتُها، وابتسمتْ، ذلك لأن النهار لم يبدأ في مساره نحو النهاية، ضغطتُ على يدها، مررت بأصابعي برقّة داخل راحة يدها، ابتسمَت، نظرت نحوى بحنان، جرت «كارولين».

t.me/qurssan

أكلنا، جميع المحلات منقوشة ومصنوعة بذوق وإتقان، الطعام رخيص، دخلنا أحد المحلات تحت عمارة ضخمة، الموسيقى تعزف ونحن نأكل، صمم رجل لا نعرفه أن يدعونا على بيرة، شربنا معه. ذهبنا إلى منزل «كومراد طوسون»، البيت دافئ، زوجته ودودة، ابنته راوية ترسم وتستقل بشخصيتها وتتفوق على الأخريات. عدنا إلى خيمتنا، بعض الناس هجروا المدينة ليعيشوا داخل الخيام بضعة أيام، يلوذون بالطبيعة والحياة البدائية، سألني رجل:

. هل أنت تركي؟

قلت:

. لا، مصري.

قال:

. هل عرفت؟ لقد أخرجتم الروس من بلادكم أمس.

فوجئت. قال:

. لقد سمعت بنفسي الخبر من «إذاعة أمريكا».

سكت الرجل. الطريق إلى دورة المياه متعرج وضيق، شربت قهوة وغسلت وجهي، عدت إلى الخيمة، شربت، كتبت رسالة في ضوء البطارية، كنت مرهقًا وفي شوق إلى أن أنام، كانت لحظة توتر لـ«كارولين»، خلعت ملابسها في صمت حزين، وارتدت ملابس النوم، لم تفتح فمها طوال ساعتين، غرقت في الغطاء، جسمها في البداية، ثم بعد لحظة غطت قدميها ثم غطست تمامًا في الفراش، ولا يدري إنسان ما الذي احتضنته في تلك الليلة، أم ظلت تبكي حتى الصباح. عندما انضمت إلينا ونحن في برلين، كانت مصدومة ومشروخًا قلبها، وتعيش مأساة طازجة حادة. عمرها أقل من خمسة وعشرين عامًا، تعمل مخرجة في أحد المسارح، وقعت في غرام أحد الممثلين، أحبها وأحبته وافترقا. في اليوم التالي أهملتني بعد أن كنا أصدقاء، أحسست أنني

t.me/qurssan

مهجور، حزين. بعد فترة طويلة وضعت «كارولين» قطعة من الشوكولاتة في فمي بيدها، ابتسمنا، ولكن اليوم بطوله لم أضع يدي في يدها. عاشت «كارولين» وحيدة أبويها، مدللة، وظلت تعيش في المراهقة الرومانسية، حبيسة، رغبت أن تكون حبيسة وتتأرجح بين عواطفها المتأججة، بين المرأة المنطلقة وبين الأحلام الرومانسية المحلقة، وهي عضو في الشباب الشيوعي. شعرها ضفائر صغيرة، ملابسها طفولية، لا تتحرك كفتاة ناضجة، عروستها تمسكها في يدها، تنام في حضنها، وأحيانًا تتحدث معها. جبنت عن مواجهة العالم واقتحامه، وعندما أحبت هُزمت، عندما بدأ عالمها في الانهيار تأزمت، عادت إلى الخلف رافضة كل شيء، رافضة العالم والواقع ودخلت قوقعتها. عيناها عسليتان، شعرها بني، شفتاها مكتنزتان، أنفها جميل، وجهها له مسحة ألمانية محددة، يكتسي بالرومانسية، عندما يبتسم مشرقًا ورائعًا، وعندما تعزف عن الابتسام تبدو متجهمة. بكت فجأة، ووضعت رأسها بين ركبتيها وأخفت عينيها، وظلت تبكي وتبكي بحرقة وكأنها تنزف دمًا، وجسمها الرفيع يرتعد ويبكي كله، وقد انحسر ثوبها، وغطت رأسها بذراعيها وظلت تبكي وتبكي. خرجنا أنا وفريد وعمر من الخيمة، تركناها مع صديقتها «إنجريد»، سرنا، تحدثنا، كان عمر قبل بكائها بلحظات قد وجَّه إليها كلمة جافة، وكان طول الوقت منعزلًا ومبتعدًا ومنشغلًا بنفسه لا يشارك، وكان جافًّا تمامًا، ربما اشتاق لابنه أو لزوجته، ربما لا يجد شيئًا يلتقي معه، كان حقيقيًّا مع نفسه، قال لي:

. أحيانًا أفكر في «كريستين»، وأحيانًا في زوجتي، وأحيانًا في أوروبا كلها، في بلدي، وأجد نفسي لا أرغب في شيء، إن كل ما بداخلي مبعثر بعثرة عنيفة.

عدنا إلى الخيمة، اعتذر عمر لـ«كارولين»، كفَّت عن البكاء، واغتسلت عيناها بالدموع. قال لها عمر متوددًا:

. تعالي نلعب.

وفرد الكوتشينة، نظرت إليَّ تدعوني إلى اللعب ورفضتُ، وفتحنا

t.me/qurssan

زجاجة نبيذ وشربنا، جلست في ركن الخيمة أكتب بعض السطور، فتح فريد الراديو وجلس يرسم، امتلأت الخيمة بالموسيقى الراقصة، مدت «كارولين» يدها لعمر، قاما، رقصا داخل الخيمة الضيقة وسط الحقائب والعلب المفتوحة والأحذية. ضمَّها، ضمَّته، انهالت عليه بالقبلات الساخنة، ونحن في دهشة، شدته خارج الخيمة، سارا وسط ظلام الطرق المنحنية الضيقة، غابا ساعة، عادا، ظلا يواصلان القبلات. كان عمر قد أفرط في الشراب كثيرًا، تمدد في فراشه وغطى قدميه ورأسه، ولم تمضِ لحظات حتى كان قد غرق في النوم، وغطيطه يملأ الخيمة كلها... تمددت «كارولين» في فراشها بجواري، لم نتبادل كلمة، قام فريد و«إنجريد» ودخلا ليناما. ظلت «كارولين» ساهرة بعض الوقت، وهي في ذهول، تركت فراشها وذهبت إلى فراش عمر، قبَّلته وهو نائم، هزَّته لكي يفيق بلا جدوى، عادت إلى فراشها، غطت كل أجزاء جسمها، احتضنت عروستها، وسمعتُ نهنهة بكائها تهز فراشها، وأنا مشدوه أكاد أجن، ما الذي حدث في هذا العالم، في هذه الدنيا؟ ألا نكف عن زرع السدود كل لحظة بين الناس جميعًا؟ في الصباح كانت مهزومة ومحطمة، ابتسامتها تشدها وتلمها وتكونها في لحظات طويلة وكأنها مريضة، عيناها ذابلتان. قال عمر ببراءة استفزازية:

. ما الذي حدث بالأمس؟

قلنا له:

. ماذا فعلتما؟!

قال:

. تبادلنا القُبَل والأحضان طول الوقت ولم نتجاوز، وعندما عدنا إلى الخيمة أحسست بالإرهاق الشديد، كنت قد شربت كثيرًا، وفجأة نمت نومًا عميقًا ولم أشعر بشيء.

* * *

قال عراف عجوز إننا متطابقان تطابقًا نادرًا، فشهوري التي

t.me/qurssan

أتوافق فيها هي شهور البرد القارس، والحر القائظ. كان الزمن له معناه. كانت الشهور أيضًا لها معنى. كانت منى تخاف من الشهر الذي ولدت فيه. ففي بداية هذا الشهر مات أخوها الكبير، وفي نفس الشهر من العام الذي يليه أُجريت لها جراحة خطيرة. وبعد ذلك بعامين فقدت أعز صديقاتها قبل عيد ميلادها بأيام، ويوم ولدت بدأت مأساتها، وكأنه تناقض بين الحياة وبين السدود التي تعترض طريقها. وفي بداية الخريف كان يحدث الانفصال دائمًا، انفصلت عن زوجها الأول، وانفصلنا أنا وهي، وانفصلت أشياء لا حصر لها. لا الربيع ولا الخريف تمضي فيهما حياتنا كما ينبغي، بل هي شهور مائعة لا طعم لها. ولقد حدث في لحظة من لحظات الزمن المائع أن أصيبت بجلطة في ساقها، تمنيت أن تقطع ساقي ولا تصاب هي، وعندما أذاب الأطباء نقطة الدم المتجمدة استعدتُ قواي.

* * *

صممت «كارولين» أن تبدأ اليوم بزيارة الكاتدرائية الكبرى، قلعة براغ التاريخية، الكنيسة تغص بالناس، الأرغن صوته ساحر، يتناغم مع التماثيل والزجاج الملون والإنسان الذي عبَّر عن نفسه بالخشب والأحجار، وتعشق النحاس بالفضة والذهب والأعمدة وأروع الزخارف. هبطنا إلى قبو الكنيسة، مقابر القديسين ورائحة الموت القديم. عدنا. سرنا. السماء تمطر رذاذًا. الشمس لم تشرق منذ يومين، السماء داكنة. النهار لم ينتصف. الشارع ضيق ونحن نسير ببطء. سنبدأ جولة واسعة اليوم بالمدينة لنودعها ونغادرها غدًا. السماء ما زالت تمطر والعربة تسير. «كارولين» صامتة وفريد يتحدث، توقف الترام بجوارنا، وفجأة سمعنا صرخة وصوت ارتطام، وتوقفنا في الحال. نزلنا من العربة، سيدة عجوز ممددة أمام عجلات عربتنا بعرض الشارع، ورأسها مصطدم بأحجار الرصيف، وجهها أبيض لا حراك فيه. توقفت الحياة، لحظة ذهول هائلة، ارتعشت قدماي، عمر وجهه أصفر، فريد ذاهل تمامًا وفقد النطق، مرت لحظة طولها ألف سنة، قال أحدنا:

- فلنرفعها من الأرض.

t.me/qurssan

رفعناها، أمامنا منزل قديم مفتوح، دخلنا في البهو المظلم، وضعناها برفق على الأرض، المرأة العجوز لا تنطق، قال عمر:

. هل ماتت؟

أمسكتُ ذراعها، أخرجتُ منديلًا، مسحتُ رذاذ المياه والأتربة من فوق وجهها وساقيها، ما زالت ساخنة، مغمضة العينين، كانت تتنفس. قال عمر:

. يبدو أنه قد حدث لها نزيف داخلي، إنها تموت.

صرخت سيدة في الشارع، تحدثت مولولة بالتشيكية، قالت كلمات صارخة لم أفهمها، الشارع فارغ تمامًا، جاء رجل، جاء آخر، تحدثا، لم نفهم شيئًا، ونحن في قمة الفزع والارتباك. حاولتُ أن أسند السيدة المصابة، قالت:

. آه.

لم تمت إذن، وضعَت يدها على ضلوعها، دلكتُ صدرها بيدي، جاوزت الستين، قالت أرقامًا وصمتت وأغمضت عينيها من جديد، جاء البوليس، تحدث بالتشيكية مع الناس وكتب، تحدث معنا وكتب، جاءت عربة الإسعاف، هبط منها ثلاثة أطباء يرتدون أردية بيضاء ومعهم نقالة، فتحت السيدة عينيها، أفاقت من الصدمة، سألت:

. أين أنا؟ وماذا حدث؟

شكت من ضلوعها وصدرها وظهرها، حملوها برفق على النقالة وأدخلوها عربة الإسعاف، كان معها لحظة الحادث كيس كبير ممتلئ بالفلفل الأخضر والطماطم الطازجة، وقع بعضه على الأرض، جمعتُ ما وقع منه وأدخلته في الكيس بجوارها في عربة الإسعاف، وانطلقَت بها العربة. قال البوليس:

ـ يمكن أن تذهبوا الآن على أن تأتوا إلى قسم البوليس في السادسة مساء لاستكمال التحقيق.

t.me/qurssan

استغرق هذا نصف ساعة.

ركبنا عربتنا وسرنا، هل تموت السيدة العجوز؟ هل سنسجن في براغ، أم سندفع غرامة ضخمة؟ الفيزا تنتهي غدًا ولا بد أن نفارق براغ، هل سنُحتجز؟ ما هي القوانين هنا؟ هل نحن الذين أخطأنا؟ أين الخطأ؟ وأين الصواب؟ هل أتينا من آخر الدنيا لكي نصدمها ونقتلها ونحطم ضلوعها؟ ولكن لماذا؟ عمر سائق ماهر وحريص، كيف حدث هذا؟ كان يسوق العربة ببطء شديد وأمطار تهطل، وتوقف الترام، ونزلت السيدة من الترام لتعبر الشارع، كان يجب أن نقف طالما الترام قد وقف ليعبر المارة. قال الضابط إن تقرير الطبيب قد وصل، السيدة أصيبت بكسور في ثلاثة ضلوع تحطمت، وهي تعالج على حساب الدولة في المستشفى، وصحتها جيدة، وسيستغرق علاجها وقتًا، قال:

. أنتم أخطأتم والحادث لعب فيه القدر والصدفة دوريهما.

تحدث طويلًا عن الحرص في قيادة العربة، وكيف يجب في أي مرة قادمة أن نحرص تمامًا، قلنا إن الفيزا تنتهي غدًا ولا بد أن نغادر، هل سيسمحون لنا؟ قال:

. نعم.

قلنا:

. وكيف سينتهي الموقف؟

قال:

. لا بد أن يُعرض الأمر على القاضي، وهو الذي سيقرر وسنبلغكم في بلادكم بالنتيجة.

كان عمر ممزقًا وحزينًا وعاجزًا عن النطق، كان يشعر حتى النخاع أن هذا لا يجب أن يحدث.

في الصباح، هدمنا الخيمة، وكانت خيام أخرى بجوارنا هدمها أصحابها ورحلوا، الناس، العربات، الحمَّام، الزحام، البوفيه،

t.me/qurssan

الأشـجار، الطـرق المتعرجـة، القـهوة، الفتيـات فـي عمـر الـورد، الحشـائش، العجـائز، الجنسـيات المختلفـة. أدرنـا مـوتور العربـة لنفـارق هـذا كله خلفنـا، سرنا، انطلقنـا في شـوارع بـراغ، البيوت المنقوشة، الأنفاق الصغيرة، الشوارع الضيقة، الميادين القديمة، رائحـة العراقـة، والتمـاثيل فـي كل مكان، واصلنا السير، توقفنا بجوار المحطة، نزلت «إنجريد» و«كارولين» لتقطعا تذاكر العودة إلى برلين، تركناهما وسط الزحام وذهبنا إلى مجلة «ديبوكراز» لنرى بعض الفنانين التشيك، صعدنا حتى الدور الخامس، قوبلنا بترحاب شديد، شربنا القهوة، تحدثنا عن الفن والرسم والصحافة والمجلات والصداقة. جاءت فتاة طويلة بيضاء أعطيتها رسالة من صديق لها في القاهرة، قبَّلتني، قالت:

. هذه القُبلة لصديقنا القاهري.

ضربت فريد في ساقه بحذائها. ضحكنا، عدنا إلى المحطة، زحام شـديد، التقينـا بـ«إنجريد» و«كـارولين»، ذهبنـا لنأكل. كان فريـد يحتضن «إنجريد» طول الوقت ويُقبِّلها، سيفترقان لأول مرة بعد شهور طويلة من اللقاء والحياة معًا. السماء داكنة، المطر ينهمر، صوت قرقعة هائلة. انطلق صوت كدوي ألف قنبلة متوالية، ثم سقطت من السماء كرة هائلة ضخمة من النيران المشتعلة، وكأن الشمس نفسها تسقط على الأرض. انسحبت روحي من داخلي، خوف حقيقي شلَّني عن الحركة، كدت أصرخ من الفزع الذي لم أحس مثله في حياتي، قالوا: «صاعقة»، حدث هذا في لحظات. سارت العربة، هبط المطر غزيرًا كالسيل وأغرق المدينة. قالت «إنجريد» وهي تودع فريد:

. عد سريعًا.

صافحتُ «كارولين»، احتضنَت «كارولين» صديقنا عمر وقبَّلته، وانطلقت العربـة فـي شـوارع بـراغ، الحـزن يملأ قلبي، كل شـيء وراءنـا، والعربـة تمضـي إلى الأمـام، وكأنها مركب يسبح وسط طوفان من الأمطار لا يريد أن يكف، والظلام يخيم. خرجنا من المدينة تمامًا، ودخلنا الأوتوستراد في الطريق إلى النمسا مرة

t.me/qurssan

ثانية، إلى مدينة جديدة، إلى «سالزبورج».

السماء معتمة، النهار لم ينتهِ بعد، الطريق يبعث الشجن، والعربة تعبر تشيكوسلوفاكيا، الصمت هو دوي الطريق، المطر يواصل بلا انقطاع، ونوافذ العربة مغلقة، ونحن الثلاثة في هذا الصندوق السائر بسرعة وحذر وسط الأمطار. كنا نحن أيضًا صناديق مقفلة، قال فريد بحزن:

. هذه أول مرة أفارق «إنجريد» منذ سبعة أشهر!

قلت أنا:

. لقد قمتُ بهذه الرحلة كلها لأتخلص من دماري ولتنتهي علاقتي مع منى عند حد!

قال عمر:

. ماذا تعني الخيانة الزوجية في الشرق والغرب؟

قال فريد:

. ما أهمية أن تحدث الخيانة الزوجية إذا استمرت علاقة الزواج مفرغة من الحب؟

قلت:

. إن الخيانة قد تكون في أوروبا متاحة لأن الظروف الأوروبية تجعلها أسهل من مصر. المسألة تتحكم فيها ظروف التقاليد والخوف وتصور الفضائح، ولكن الأمر واحد.

قال عمر:

. القيم ليست واحدة.

قلت:

. مغزاها وجوهرها واحد هنا وهناك.

قال عمر:

t.me/qurssan

ـ المرأة الشرقية أكثر تماسكًا.

قلت:

ـ لا، بل أقل قدرة على التصرف، أو هي مضطرة للسلوك بطريقة ملتوية وسرية ومكتومة.

قال فريد:

ـ عندما تنشأ العلاقة على حب حقيقي وتلاقٍ حقيقي لا تحدث الخيانة في أي مكان في العالم.

قال عمر:

ـ وكيف يستمر؟ ألا تشعر في أعماقك بنزوعك إلى التحرر حتى من قيود الحب بعد فترة ما؟

وتوقفت الأمطار، وسارت العربة، واقتربنا من الحدود التشيكية، كان الزحام أمام مبنى الحدود شديدًا، ركنّا العربة على بُعد أمتار من الأراضي النمساوية، مئات الكيلومترات تفصلنا عن «سالزبورج». ليلة رحيلنا من براغ اقترح علينا الفنان زين أن نرى «سالزبورج»، قال يومها إن القضية التي تؤرقه هي ابنته، هل يعود إلى القاهرة من أجلها أم يواصل؟ لم يعد هناك شيء قادر على إثارة الدهشة في وجدانه. قال:

ـ ابنتي تخرج من البيت إلى المدرسة، تخلع حذاءها على باب المدرسة قبل الدخول وتلبس حذاء آخر لأن المدرسة معقمة، وتدخل الفصل لتدرس، في العاشرة تكون قد جاعت، يُقدَّم لها كوب من اللبن، ثم تدخل حجرة ممتلئة بأحدث لعب الأطفال وتلعب، وتتغير لعب الأطفال في المدرسة كل شهرين بعد أن يعتادها الأطفال. الساعة الثانية عشرة، يُقدَّم لها الغداء، في المدرسة لها سرير خاص وبيجامة وملابس للنوم، تتمدد ساعتين، ثم تستيقظ لتواصل اللعب والدرس حتى نعود ونأخذها. وتذهب مرة على الأقل في الأسبوع إلى المسرح، ورحلة على الأقل كل أسبوع أيضًا خارج المدينة في عربة مريحة أنيقة. قل لي، متى

t.me/qurssan

ذهبت أنت إلى المسرح أول مرة في حياتك؟ قد يكون بعد سن العشرين، هذا كله مجانًا وللجميع ولا أدفع غير قروش قليلة ثمن ثلاث سجائر كل يوم مقابل الطعام والعربة، وجميع الناس متساوون، ولا تشعر الطفلة أن أباها عامل أو وزير. قل لي، لو عدت أنا إلى القاهرة ولا مفر من ذلك، فكيف تستقبل ابنتي الحياة؟ وكيف تواجهها؟ وكيف تفسر ما يحدث في مجتمعنا؟ ألا يتمزق وجدانها بين ما تمارسه الآن وما سيحدث لها كطفلة قاهرية؟ بالنسبة لي لم يعد هناك جديد هنا أو هناك، بالنسبة لطفلتي ماذا أفعل؟ هل أواصل من أجلها وبعد وإلى متى؟ هل أعود الآن وأحرمها فرصة حياة أفضل؟ ولماذا؟ وما ذنبها؟

وجاء دورنا، وقفنا أمام ضابط الحدود، خُتمت الأوراق، فُتشت العربة، اجتزنا الحدود، دخلنا الأوتوستراد النمساوي، اتسعت الطرق، ظلمة الليل تتكاثف، الأمطار تنهمر، العربة تنطلق في الطريق إلى «سالزبورج».

أحسسنا بالجوع الشديد، ونحن نسير بأقصى ما نستطيع، وجدنا داخل العربة بقايا علبة مربى وفلفلًا أخضر وقليلًا من الخبز، المدينة بعيدة، سيطر الصمت مرة أخرى ولم نعد نسمع غير صوت المياه التي تنهمر فوق سقف العربة، وأضواء العربة تبدد جزءًا من الظلمة.

* * *

كان طريق حياتي في القاهرة في يونيو الماضي مظلمًا وداكنًا قبل رحلتي مباشرة، عشت التوتر في حبي، طالبتها أن تضع حدًا للغرابة والتمييع، أن نفترق أو أن نتزوج، قالت:

- نعم، لقد أرهقتني الأيام ولا بد من الرسو على شاطئ.

وكان حبي لها قد انهار أغلبه، وكان عليَّ أن أحتمل وأجد نفسي وأبدأ من جديد، وتراكمت السنون والأيام الماضية، حلوها ومرها، وكان عليَّ أن أقدر كل الظروف وأشق طريقًا جديدًا، مضحيًا بسعادة الماضي التي لا مفر من تركها ورائي، فمن المستحيل أن

t.me/qurssan

يعيد الزمن نفسه، وأن أقبل قوة الحاضر، وجفافه.

* * *

وبدت من بعيد أنوار المدينة، وتكاثرت اللافتات والأسهم البيضاء، إلى « **سالزبورج**»، الأمطار ما زالت رذاذًا، ركنّا العربة، نزلنا نبحث عن مكان، جميع الفنادق كاملة العدد، سألنا أحد سائقي التاكسيات، أدار زرًّا داخل عربته وتحدث بالراديو وجاء الرد، وهو جالس في مكانه، قال:

. يوجد فندق.

سألنا عن الأسعار، وجدناها خيالية وفوق طاقتنا، قلنا نبحث بأنفسنا، ودخلنا عددًا من الفنادق، جميعها ممتلئة، ولا موضع لقدم، اقتربت الساعة الواحدة، ركبنا عربتنا وخرجنا من «سالزبورج» لنبحث عن مكان على أطراف المدينة أو حولها، توقفنا أمام مقهى وبنسيون، ألححنا في طلب مكان لننام فيه حتى الصباح، شربنا «كوكاكولا»، لم نجد مكانًا، عدنا إلى «سالزبورج» مرة ثانية، سرنا في شوارعها، قررنا أن ننام داخل العربة، سرنا بجوار النهر الصغير، وجدنا مكانًا مهجورًا بين منزلين مسورين بالحدائق، دخلنا بظهر العربة، توقفنا، أمامنا الطريق والنهر، أخرجنا من حقيبة العربة البطاطين، وضعناها في الداخل، أعددنا المقعد الخلفي لأنام عليه أنا وفريد، وينام عمر في المقعد الأمامي، أكلنا، أطفأنا نور العربة، كانت لدينا زجاجة نبيذ، شربناها حتى تساعدنا على النوم، سقطت الزجاجة الفارغة من يدي خارج العربة وتحطمت وتناثر الزجاج على الأرض بجوار العربة، واصلنا الأحاديث، قفلنا أبواب العربة، خلعت نظارتي، وضعتها تحت رأسي، هذه أول ليلة نام فيها محشورين داخل العربة.

صوت ارتطام عنيف فوق رأسي مباشرة، قمت فزعًا من النوم، ارتديت نظارتي، رأيت أمامي امرأة عجوزًا تهدر بالإنجليزية:

. من أنتم؟ وكيف ارتكبتم هذه الجريمة القذرة؟ يا أقذر الناس جميعًا، هل تجيئون من بلادكم لتلقوا بقاذوراتكم على الناس؟! يا

t.me/qurssan

سفلة، من أي جنس؟ ومن أي بلد؟ هل أنتم نموذج لشعب قذر غير متمدين؟ هل ترون الجريمة التي ارتكبتموها؟ هذا الزجاج المكسور، انزل فورًا يا هذا واحمله وضعه في العربة، احملوا قاذوراتكم معكم ولا تلقوها على الناس، لديَّ حيوانات أُربيها، وهذا الزجاج يهدد حياتها... انزل! انزل في الحال واجمع هذا الزجاج المتناثر!

كانت تهدر كالعاصفة وبغضب رهيب، وكلماتها قاطعة كطلقات المدافع، كان فريد وعمر قد استيقظا وفي حالة ذهول، وفوجئت أنا مفاجأة مرعبة بالخبطة الشديدة التي كادت تقتلني بها هذه الشمطاء، لقد أمسكت المرأة في غضب بقاع الزجاجة المكسورة، وضربته في باب العربة بأقصى قوتها، ولو ارتفعت بيدها سنتيمترًا واحدًا لحطمت نافذة العربة وكسرتها وذبحني الزجاج المكسور، بعد الدقائق الأولى من هذا الهدير القاسي استعدت نفسي، نزلت بهدوء وأنا حافي القدمين، جمعت بيدي الزجاج المكسور كله بذلة شديدة، وكأني منوم تنويمًا مغناطيسيًّا، بعد أن جمعت الزجاج المحطم قلت بهدوء:

. نحن آسفون، لقد جئنا بالليل بعد منتصفه، ولم نجد مكانًا ننام فيه فنمنا داخل العربة.

قالت المرأة بحدة أقل:

. أنا لا أعترض على أن تناموا داخل عربتكم أو في أي مكان، ولكن عليكم أن تحافظوا على نظافة المكان الذي تقفون فيه، هل تفعلون هذا في بلادكم؟ من أي بلد أنتم؟

قلت:

. نحن فعلًا هنود، كيف عرفت ذلك؟

- ملامحكم آه... طبعًا تملأون شوارعكم بالقاذورات وتلقون الأشياء من النافذة إلى شوارعكم القذرة.

تدخل فريد بعد أن استجمع نفسه، وقال:

t.me/qurssan

. إن بلادنا فقيرة وغير متمدينة، وكان من الممكن أن نكون مثلكم، ولكن الاستعمار الإنجليزي هو الذي نهب بلادنا وأعاقها عن التطور، وأنت طبعًا تعرفين.

قالت:

ـ أنا أكره الإنجليز والاستعمار، ولكن ما شأني أنا؟ أنا أربي حيوانات في حديقة منزلي، وهذا الزجاج المكسور يهددها، ويمكن أن تأكله وتموت، هل تفهم؟ ما هو عملكم؟

قال فريد:

. نحن من كلكتا، وهي مدينة كبيرة وجميلة، ونملك معًا مزرعة كبيرة، نزرع فيها المانجو، وسنرسل لك صندوق مانجو، هل أكلت المانجو؟

وتحول الفزع والرهبة إلى رغبة في السخرية والضحك، قالت:

. لا، سمعت عنها.

قال فريد:

. إنها ثمرة جميلة خضراء مستديرة لها رائحة خاصة ولها مذاق أجمل من التفاح.

قالت المرأة:

. أوه... ولماذا جئتم إلى سالزبورج؟

قلت لها:

. نحن في إجازات وجئنا لنتفرج.

قالت:

. آه... لتصعدوا الجبال، هل لديكم جبال في الهند؟

قلت لها:

t.me/qurssan

. بالطبع، لدينا في الهند كل شيء، الجبال والأنهار والمزارع والحياة الجميلة جدًّا، ولكنها حارة في الصيف للغاية، إن شعبنا طيب، ولكن الاستعمار الإنجليزي كما تعرفين.

كانت المرأة قد هدأت ثورتها تمامًا واستغرقها الحديث عن الهند، المرأة سمينة، فوق الخامسة والستين، وجهها مجعد، شعرها أصفر باهت يشوبه البياض، متينة البنيان، ملامحها مغضنة ووحشية، عيناها زرقاوان، تشوبهما بعض الحمرة، عروق يديها بارزة، تلبس فوق ملابسها رداء أبيض مثل رداء الممرضات، قالت:

ـ أنا أسكن في هذا البيت المسوَّر وحدي، وأربي حيوانات في الحديقة، ويمكنكم ـ لو أردتم ـ أن تناموا ليلة أخرى هنا في نفس المكان، ولكن بشرط ألا تلقوا بأي شيء على الأرض.

قلنا لها:

. شكرًا.

وذهبنا. قال فريد:

. لن أنسى حتى أموت هذه الشمطاء البشعة!

قال عمر:

. علينا أن نرحل فورًا من هذا المكان!

ذهبنا إلى وسط المدينة، توقفنا أمام مقهى، أكلنا وشربنا القهوة، دخلنا أحد البنوك، رفض البنك شيكاتنا السياحية، كانت البنوك قد أوقفت التعامل بالإسترليني عدة أيام، الدولار أيضًا منهار، كارثة، استطعنا أن نتخلص من هذه الشيكات الإسترلينية، سرنا في شوارع المدينة وطرقاتها، المدينة جميلة، ولكن المرأة العجوز كانت قد سممت أرواحنا ولم نعرف كيف نستمتع، قررنا أن نفارقها في الحال، تركنا العربة، سرنا على أقدامنا، فوجئ فريد بإنسان أوروبي ضخم يصطدم به ويضربه بالكتف يكاد يخلعه من الأرض وهو سائر وباستهانة بالغة، توقف فريد مذهولًا: لماذا فعل

t.me/qurssan

الأوروبي هكذا؟ لماذا نعامل كمواطنين من الدرجة الثانية؟ كانت الضربة الكتفية التي أخذها فريد مماثلة لموقف المرأة الشمطاء الشرسة... إنهم ينظرون إلينا وكأننا نوع آخر أدنى. جلسنا في مقهى، وفردنا الخرائط لنقرر إلى أين نسير. اتفقنا أن نذهب إلى «إنسبروك» لنصعد جبال الألب، ونمضي هناك أربعة أيام، ثم نواصل إلى «فينيسيا» لنرى المدينة والبينالي ونمضي هناك بضعة أيام، ثم نفكر في العودة، ويعود فريد بالقطار إلى برلين، إلى «إنجريد»، ونواصل أنا وعمر رحلة العودة. قال فريد:

. إذا كنا سنذهب إلى «فينيسيا» بعد «إنسبروك» فلماذا لا نواصل إلى باريس ونعود؟

واختلفنا، وقررنا . حيث إننا متفقون على الذهاب إلى «إنسبروك» و«فينيسيا» . أن نذهب إلى هناك أولًا، ثم نناقش خلافاتنا في «فينيسيا»، واتفقنا، الخرائط أمامنا، وعلينا لكي نواصل إلى «إنسبروك» أن نصعد جبال الألب وندور مع دورانها حتى نصل إلى هناك عبر الطريق الدولي الشهير الذي يصعد ويلف حول أعظم جبال أوروبا، الطريق اسمه: «E١٤».

تركنا «سالزبورج»، انطلقنا، توقفنا أمام محطة بنزين، ملأنا العربة، واصلنا السير، كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا، واصلنا، تحدثنا طويلًا، أشعلنا سجائرنا، فردنا الخرائط، عثرنا على العلامة «E١٤»، مكتوبة داخل دائرة خضراء صغيرة على حافة الطريق ونحن نصعد تقابلك العلامة كل خمسة كيلومترات لتطمئن على أنك تواصل في الطريق، العربة تصعد بنا، الطريق يتسع ويضيق، قبل مئات الأمتار تقرأ لافتة تقول: «ستدخل نفقًا بعد ٥٠٠ متر»، تقترب، قبل النفق بأمتار لافتة تقول: «افتح نور سيارتك»، تخرج من النفق، طوله كيلومتر في قلب الجبل، بعد مائة متر لافتة تقول لك: «طبعًا نسيت أن تطفئ نور سيارتك»، تبتسم وتطفئ النور، وتسير، لافتة تقول لك: «لا تواصل إلى النهاية، وإنما ادخل في الطريق الجانبي مع السهم بعد ثلاثمائة متر، لأن هناك تصليحًا والطريق مسدود»، تواصل، لافتة تقول لك: «احذر ستقابل منحنيات أخفض سرعة سيارتك إلى ٣٠ كيلو»، بعدها لافتة

t.me/qurssan

مكتوب عليها: «الآن أسرع إذا أردت وسر على أكثر من مائة كيلو»، تواصل السير، وكأن الطريق يتحدث معك ويقودك ويلاغيك، هنا لافتة تنبهك إلى وجود تلفون، أخرى إلى وجود موتيل قريب، أخرى إلى بارك تستطيع أن تستريح فيه، أخرى تقودك إلى حنفية للمياه، إلى محطة للبنزين، إلى مقهى صغير، وهكذا طوال الوقت.

نقترب من السحاب، توقفنا لأن قطارًا يمر بعرض الجبل ويخترقه، توقف الطريق كله، صف طويل من مئات العربات توقف، فتحت العربات أبوابها، نزل الناس منها، من جميع الجنسيات، تحول الطريق إلى مجتمع غريب، إلى مدينة طولية، تلون الطريق بمئات الألوان والملابس والأشكال والفتيات والرجال والأطفال من قبل مئات العربات، الناس الذين لم يلتقوا قَطُّ يتجاذبون الكلمات، ابتسمنا لفتاة، أقبلت، طلبت ثقابًا، أعطتني سيجارة فرنسية، انفتح الطريق، دخل الناس عرباتهم من جديد، قفلوا الأبواب وانتهى التقارب، وقد لا نلتقي أبدًا حتى نموت، واصلت العربات سيرها فوق «E١٤».

ما زلنا نواصل الصعود، وندور حول الجبل، ونخترق الأنفاق الهائلة التي صنعها الإنسان مخترقًا جدران الجبل، حول الطريق، الجبل مزروع، تحته بمئات الأمتار وآلاف الأقدام المزارع المخططة والقرى الصغيرة، وتشهق من الارتفاع إذا وصلت إليه وأنت تسير على ظهر الجبل وتدور معه، وتدخل من جديد نفقًا وتخرج منه.

وارتفعنا حتى أصبح السحاب تحتنا، بعيدًا يظلل الوهاد، كتلة غامضة رمادية تتحرك وترقب حركتها الهوجاء نحو اليمين ونحو اليسار، ونحن فوق هذا كله، يصطدم السحاب بجدران الجبل ويرتد إلى الفضاء مرة أخرى، ويبدو الجبل وكأنه يشتعل ويدخن دخانًا أبيض فضيًا، وعلى ضفافه الخضرة الداكنة والطريق يقودنا باللافتات إلى أن نصل إلى أعلى قمة، وتقرأ لافتة تقول: «بعد مائة متر مقهى، تستطيع أن تركن العربة وتأكل وتستريح»، كنا قد اجتزنا أكثر من نصف الطريق المذهل، وتوقفنا فوق أعلى قمة

t.me/qurssan

من الانبهار، ركبنا العربة، الجو خرافي، لم أشعر بهذا النقاء قَطُّ، جلسنا، جاءت فتاة، طلبنا طعامًا وبيرة.

المتعة التي بداخلنا لم نعد نحتملها، مذاق الهواء هو الحرية، روعة استنشاق عبير الجبل وصفائه، والهواء الذي يعلو فوق السحاب له مذاق حر، الإحساس بصفاء إلهي حقيقي داخل صدرك ورأسك ودمك، بأنك حر وطليق وتسبح فوق الدنيا بلا أدنى قيد، شعور لم نمارسه قَطُّ، تمنيت أن تكون منى معي و«إنجريد» وكل أصدقائي، قلت في داخلي: لا بد أن ترى منى الدنيا كلها وتلف العالم معي ونتذوق عبير الحياة معًا، أي متعة ستعيشها معي للحظات، ولكن أين هي الآن؟ وبدأنا في الهبوط، مواصلين السير في الطريق الذي يدور حول جبال الألب، أمامنا وخلفنا عشرات من العربات، ونحن نهبط بحذر منحنيات الجبل، والأمطار تهبط فوقنا بعد أن كنا فوقها، وسحر الطريق ما زال مسيطرًا على وجداننا، و«الفولفو» تنطلق في محبة للطريق المتعرج، الطريق يخترق الجبال، الطريق يتسع ويصبح الجبل خلفنا، يتسع أكثر وأكثر، المطر يتوقف، السماء رمادية، اقتربنا من المدينة.

الخطوط البيضاء واللافتات تتكاثر، في السادسة تقريبًا وصلنا مشارف **«إنسبروك»**، توقفنا أمام أحد المكاتب وسألنا عن حجرة، أُجبنا:

. توجد حجرة في بنسيون «مدام سيسي» في ضاحية **«روم»**، قرية سياحية تبعد ثلاثة كيلومترات عن قلب المدينة، الأجر معقول.

ذهبنا إلى «مدام سيسي» ومعنا الخريطة، القرية صغيرة تحف بكل شوارعها أشجار التفاح الأخضر، المباني كلها فيلات مسوَّرة بأشجار التفاح والفاكهة، تشبه المعادي، وصلنا، استقبلتنا «مدام سيسي»، سيدة فوق الأربعين، بيضاء، غامضة، طيبة، كتبنا أسماءنا، عرفت أننا مصريون، رحبت بنا، غسلنا وجوهنا، استرحنا قليلًا، نزلنا نكتشف القرية، جلسنا في المطعم الوحيد بها، قرأنا

t.me/qurssan

صفحات عن تاريخ قرية «روم»، أكلنا، اشترينا سجائر وشربنا، في الصباح نزلنا بالعربة إلى «إنسبروك»، ركنّا العربة، تجولنا في ميدان «ماريا تريزا»، المطر متواصل طول الوقت، سرنا على أقدامنا، جلس فريد يرسم في الميدان، التقى بـ«أنطوانيت»، رسمها، أختها ممرضة في المستشفى، سرنا معها حتى بيت الممرضات، عبرنا أحد الكباري، سرنا في شوارع المدينة، تجوَّلنا داخل المحلات والمطاعم، في المساء ذهبنا إلى مقهى صغير اسمه «مقهى جوته»، لم تحضر «أنطوانيت»، كان «جوته» وعدد من الأدباء والفنانين يجلسون في هذا المقهى الصغير، داخل المقهى فرقة موسيقية صغيرة، سيدة بدينة جدًّا تغني وآخر يعزف على الأوكورديون، ورواد المقهى يرددون معهما الأغاني الشعبية، رقص الناس وشربوا، تحدثنا معهم، رسمهم فريد، خرجنا، سرنا في الحي القديم، البيوت القديمة والأزقة الأثرية المماثلة لحارات خان الخليلي، عدنا إلى ميدان «ماريا تريزا»، أوقفني شاب سائح ليشعل سيجارته، قال إنه يسكن فوق الجبل، تحدثنا مع سيدتين جاءتا منذ سبعة أشهر، تعملان في «إنسبروك»، وتتنقلان بين مدن العالم.

في الصباح التالي تعرفنا على شاب فرنسي وخطيبته، شاهدا كتابًا عن مصر، تركناهما أمام القنصلية الإيطالية، ذهبنا لنأخذ فيزا الدخول لإيطاليا، سرنا في حي السفارات، واصلنا السير على الأقدام في الشوارع طول الوقت، الجو رمادي، الجبال تحيط بالمدينة من ثلاثة جوانب، يمتد سلك التلفريك بين جبلين، البيوت بيضاء فوق الجبال المكسوة بالخضرة، السحب لا ترقى إلى قمم الجبال، تصطدم بها وتعود متفرقة بيضاء، تركنا العربة، انتظرنا الترام، كان يقف فتى يوغوسلافي، عامل، قال إنه يعمل في النمسا، قال إنه يعرف ناصر، قال:

. وفاة ناصر خسارة كبيرة.

ركبنا الترام، فتاة فاتنة تقف برقّة، ترك فريد مكانه لها، جلست بجواري، ملامحها صافية رائعة، ابتسمت ابتسامة مشرقة، نزلَت بعد محطتين، حيتنا وهى تفارق الترام، هزت أوتارنا.

t.me/qurssan

مضت الأيام في «إنسبروك» هادئة جميلة بطيئة، ونحن نشرب قال فريد:

ـ أنا أتعذب، ولا أحتمل الحياة في برلين، يمزقني الشوق إلى القاهرة رغم أن اليوم في القاهرة رتيب ومتكرر وبطيء، في برلين ليس لي أصدقاء، العمل في القاهرة رتيب وسخيف، الناس في برلين، بل في أوروبا، مشغولة عنك تمامًا، بعملها وبنفسها وباليوم نفسه، ويستقبلونك بترحاب لمدة دقائق، وبعدها يجب أن تذهب، الفن والأوبرا والموسيقى والمسرح وكل شيء موجود ومنظم قبل أن تذهب إليه، وليس لك دور ويمكن أن تشارك فقط، تتفرج وكأنك تمر أمام واجهة زجاجية، جميع الأشياء المحيطة بي أنا متناقض معها ما عدا «إنجريد»، ولكن هل يعيش الحب وسط جزيرة منعزلة تمامًا عن كل شيء ويتغذى من داخله؟ لا بد من جسور إلى الحياة حتى يظل الحب أخضر يتنفس، لا بد من الاتصال بالآخرين حتى لا تنخر العزلة في الحب نفسه، جزيرتي التي أطفو فوقها غريبة إلى أقصى حد، والغرابة والعزلة تقتلاني. وفي الجانب الآخر بلدي مصر القاهرة، عشتها حتى النخاع، ولم أجد نفسي قَطُّ، لم أجد إنسانيتي قَطُّ، ولن أجدها أبدًا، فأنا محاصر، عشت محاصرًا في القاهرة، وفي برلين معزول وغريب وأجنبي، ولا مفر من العودة. لم أعد أحتمل برلين الرمادية وعزلتي فيها، ولا أطيق الحصار في بلدي والجفاف والحياة الميتة.

في الصباح، جلست معنا صاحبة البنسيون، وزوجها وأولادهما، تحدث الرجل عن مصر، كانت مفاجأة لنا، زاروها في العام الماضي، ذهبت «مدام سيسي» إلى الداخل وعادت وفي يدها زجاجة ممتلئة، قالت:

ـ هذه مياه من النيل.

جننا من الدهشة، ذهبت مرة ثانية إلى الداخل وعادت وفي يدها علبة مقفلة فتحتها، وقالت:

t.me/qurssan

ـ هذه رمال من صحراء الهرم، وهذا تمثال صغير لنفرتيتي، وهذه قطعة جرانيت من أحجار أسوان.

وأحضر زوجها كتابًا كبيرًا يمتلئ بصور الآثار المصرية القديمة، تحدث عن أسوان والقاهرة، قال:

ـ القاهرة مدينة لا تقل عن أي عاصمة أوروبية حديثة.

وكان يتحدث عن مصر بحب شديد، قال الرجل:

ـ رأيت جنوب مصر من نافذة القطار، فقير وبدائي، الفلاحون الذين يعملون في الحقول يستخدمون أدوات بدائية جدًّا منذ عهد الفراعنة، وعيون الأطفال الفقراء مريضة من الذباب.

قال:

ـ إسرائيل دولة معتدية، ولكن كان يجب أن تدافعوا جيدًا عن سيناء، فهي درع مصر.

وتحدث حديثًا عسكريًا طويلًا، قال إن المشكلة الآن معقدة، لأن إسرائيل أكثر تطورًا تكنولوجيًا من مصر. قالت زوجته:

ـ ولكن، كيف يحدث هذا لمصر وهي بلد عريق قديم ذو حضارة عظيمة؟!

قالوا:

ـ لقد أمضينا وقتًا رائعًا بين معابد الأقصر والكرنك والدير البحري وأسوان والقرى النوبية وشوارع القاهرة.

وكان الحديث شائقًا ومفاجئًا لنا، وتبادلنا الهدايا، وضعنا الحقائب في العربة، وودعنا أصدقاءنا، سرنا في شوارع «روم»، وصلنا «إنسبروك»، توقفنا أمام المتحف، دخلنا، بجوار مقتنيات المتحف لوحات «بيكاسو» و«ماتيس» وعدد آخر من الفنانين، أمضينا ساعتين، خرجنا، ركبنا العربة، انطلقنا بالعربة صوب مدينة «برينز»، تبعد عن «إنسبروك» ثلاثين كيلومترًا، اجتزنا أحد الأنفاق، بعده مباشرة جمرك الحدود الإيطالية، توقفنا، فتشوا الحقائب

t.me/qurssan

بدقة، وكذلك العربة، بحثوا طويلًا في القوائم السوداء عن أسمائنا، ختموا الباسبور، خرجنا من الحدود، انطلقت العربة على الأراضي الإيطالية.

انطلقت العربة تعربد على الطريق، تخترق الجبال والأنفاق، من أعالي الجبال المحيطة تنهمر خطوط رفيعة من المياه وتصب في أنهار ضيقة صاخبة، المياه شديدة النشاط والعراك، وتكوِّن شلالات صغيرة عنيفة وممتلئة بالعنفوان، على الجانبين جبال الألب الممتدة بين النمسا وإيطاليا، الراديو يلعلع بالأغاني الإيطالية الحارة الدافئة السريعة التي دمرت الركود، الموسيقى السريعة الحية العذبة، الأصوات الشجية للرجال والنساء، والشوق يهز الأعماق دون أن نفهم كلمة واحدة، أغنية ألمانية ترجمها لنا فريد، تنطلق من الراديو:

بالحب فقط تستطيع أن تعيش

فقط بالحب، الحب هو الحياة

تشرق الشمس في النهار

ولكنها لا يمكن أن تعطيك الحياة بدون الحب

بالحب تعيش...

هاهاها، وتمضي الموسيقى والأغنية، «الفولفو» تجتاز الأنفاق التي هزم بها الإنسان الجبل، انسبنا داخل خمسة أنفاق وأكثر، نفق منها طوله كيلومتر في قلب الجبل. أشرقت الشمس التي لم نرها منذ أربعة أيام، منذ كنا في براغ، دخلنا «الأوتوبان»، نحن نسير بسرعة هائلة فوق الأراضي الإيطالية، كلما اجتزنا خمسين كيلومترًا أوقفونا لندفع مبلغًا من المال أجر استخدام الطريق السريع، انطلقنا، تجاوزنا مدينة «**فيرونا**»، انطلقنا وسط المدن والقرى الإيطالية، الزهور والخضرة في الشرفات والناس تمضي، العربة تسير بلا توقف أكثر من ست ساعات متواصلة، توقفنا لحظات، أكلنا وشربنا، الليل يقترب، واصلنا السير، أظلمت الدنيا، ران صمت وتوتر، صوت العربة يملأنا، ويتجمع الشجن والأسى

t.me/qurssan

مختلطين بالفرحة، وأنوار المدينة تظهر من بعيد... اقتربنا، اقتربنا، اتسعت الطرق وازدحمت باللافتات الخضراء والزرقاء والحمراء، الإشارات البيضاء على الأسفلت الأسود تشير إلى أننا على بُعد كيلومترات من «فينيسيا»، ازدحم الطريق بالعربات الذاهبة إلى هناك، درنا حول صينية متسعة من الأسمنت، ارتفعنا فوق كوبري ضخم يمتد أكثر من ثلاثة كيلومترات فوق البحر الأبيض، تحت مياه البحر، المدينة أمامنا، وتملأ عيوننا أنوارها الخرافية، أشفقنا على أنفسنا من الدهشة، توقفنا قبل أن نصلها بكيلومتر واحد، ركنّا العربة فوق الكوبري، نزلنا، وقفنا ومددنا الأبصار، ها هي **«فينيسيا»** على بُعد كيلومتر واحد، تحت أبصارنا تمامًا، بيننا وبينها دقيقة واحدة، وأضواؤها الخيالية تبرق وتضيء البحر كله بنقط صغيرة لا حصر لها ممتدة في قوس غريب يحيط بالبحر الغامق الأسود، والعربات تهدئ من سيرها، وهي ذاهبة إلى المدينة العجيبة التي لا مثيل لها في العالم، «فينيسيا».

* * *

خرجت من المعتقل، أغرقت نفسي في خضم الحياة دون تفكير في تفصيلات يومي، التحقت بعدد من المجلات، عملت فيها وفُصلت، لم تكن هناك قوة تملك القدرة لأن تخفف من اندفاعي سابحًا ضد التيار في نهري الصغير الخاص، ويوم دكت القنابل مطارات مصر الجديدة التقيت بمنى، وقالت إنها ستذهب إلى مكان آمن، كان منزلها القديم قريبًا من المطارات، وقال لها أحد أقاربها:

- أنت تهربين بجلدك.

يومها دافعتُ عنها بحرارة، قلت:

- ولماذا لا تذهب إلى مكان آمن؟ ولماذا تعيش في خطر أو تهدَّد بالموت؟

كنت مدركًا أن لا قيمة لأن تظل في مكانها أو تذهب إلى مكان

t.me/qurssan

بعيد، وعندما ذهبت بعيدًا، أحسست بلحظات الوحدة، وتمنيت لو كانت لم تبتعد وبقيت معنا تحت الخطر، وتعمقتُ في داخلي مندهشًا، وحلت الهزيمة، وانكسرت أرواحنا، وتهدمت المعايير، واختلطت أمور كثيرة، وقبل انتهاء العام كانت تنزف، وأحسست بقلق حقيقي نحوها، ونجت من النزيف، والتقينا، قالت:

ـ تعالَ لنسير معًا.

كانت تبحث عن بارفان، سرت معها، وضعت يدي في يدها، وأحسست بشيء ينمو داخلي، تركته يخضر، أخذت الزجاجة الصغيرة من يدها ووضعتها في قبضة يدي، وواصلنا السير، وتحطمت الزجاجة في قبضتي من فرط انفعالي، جُرحت إصبعي، قلت:

ـ هل نلتقي غدًا؟

قالت:

ـ نعم.

كانت في انتشاء حقيقي، كانت تحس باقتراب المطر، والارتواء بعد جفاف طال، كان هذا في بداية نوفمبر، في نهايات الخريف الحزين، الأشجار ما زالت خضراء، أوراقها لم تسقط، الطريق يضيء ليله بصيص من الضوء لا يبدد الظلمة، الهواء دافئ مشرب بلسعة برد ذائبة وسط الدفء، أرض مصر الجديدة تظللها الأشجار والهدوء ورائحة الورد، القمر من بعيد يختفي لحظات ويضيء لحظة، وتتسرب أشعته من خلف السحاب الأبيض برقَّة فوق السماء الداكنة، أصابع يدها ترتاح وتتلاقى بأعماق كفي، وبدايات اللهب، وتستسلم وترقد ولا تتمرد بل تستمتع بالاستسلام، الأرض حلوة، الضوء الخافت يناسب ما يعتمل في داخلي، الهواء له مذاق، الحياة لها رائحة، عيناها تتشربان كلامي وتمتلئان بالرجاء والتساؤل، انتهيت من كلامي، قالت:

ـ وأنا أيضًا.

t.me/qurssan

قلت:

. سنلتقي غدًا.

قالت:

. كل يوم لا بد أن نلتقي.

كنت غاضبًا، كان البط الأبيض أمامنا يسبح ويتعانق في المياه، وتصافَينا، وحكيت لها حياتي، طفولتي، أفكاري، والسنوات التي غبت فيها، والمستقبل واهتماماتي، والنهر الذي أسبح فيه، وعندما تجردت من ملابسها أول مرة فشلت، وعندما كانت تتركني كنت ألتهب من الرغبة فيها، وعندما نلتقي أفقد قدرتي، وعشت هذا التناقض القاسي أسبوعين، وكانت وهي بجواري عارية تبكي من الامتهان الشديد، وأنا عاجز تمامًا، وعندما استطاعت أن تحفر لنفسها مكانًا في داخلي نجحت، وفهمت جيدًا أنني لا يمكن أن أتوافق إلا مع الحقيقة، وكنا نكرر نجاحنا كل يوم مرتين وثلاثًا وأربعًا، وامتلأت الحياة بالتوهج والتلاقي والفرحة والاكتشاف.

* * *

دخلنا المدينة، الطرق لا تتسع لسير العربات، وركنَّا العربة في ركن بميدان روما، سرنا في الأزقة الضيقة المتشابكة، المياه تحتنا مباشرة، وبجوارنا، والبيوت مبنية على صخور نائية بارزة وسط المياه، وتربط مئات الجزر المنفصلة الكباري الصغيرة والكبيرة، الشوارع هي قنوات المياه الكثيرة، يسير بها الجندول الأنيق والمراكب الصغيرة والأتوبيسات النهرية، سرنا طويلًا، وصلنا ميدان «سان ماركو»، لحظة رائعة أن ألتقي بهذه المدينة، وكأنني أحتضن صديقًا عزيزًا لم أره منذ سنوات، الميدان تغمره الأضواء، مئات من الفتيات والنساء والشباب، الرجال من جميع جنسيات الأرض ومن كل مكان في العالم يلتقون هنا، يسيرون ويجلسون ويفترشون الأرض، جميع البشر في لحظة واحدة في مكان واحد، الموسيقى تعبق المكان وتنساب من المقهى الكبير، الساعة

t.me/qurssan

العاشرة مساء، تجولنا في الميدان، جلسنا على قاعدة أحد التماثيل، على بُعد خطوات منا رجل يناهز الخمسين، رشيق القامة ممتلئ بالحيوية، ومعه سيدتان ورجل آخر، يعبرون الميدان هم الأربعة بالرقص المتناسق مع الموسيقى، يسيرون بالرقص بالفرحة بالتناغم بالهزة، منظر رائع فريد، تتجمع الفرحة والدهشة داخلنا، عشرات العيون تتلاقى وتضيع وتغرق وتفترق إلى الأبد، تسير عيون في الميدان تتفرج وتندهش وتتوق.

* * *

في البداية كنت أنا وكانت هي معي، ولم يكن الفساد قد تطرق إليَّ، كانت حبي ولهفتي وشوقي، كانت الحنان الذي أهفو إليه ولم أجده طول حياتي، كانت هي لهفة أمي ورقة أختي وعشق حبيبتي وألفة زوجتي وجنون ابنتي، كانت منى كل المشاعر التي أفتقدها ولم أمارسها مجتمعة قَطُّ، كان شعرها الناعم وسادتي، كان ملمس ظهرها الحريري يشعرني بالدنيا كلها تحنو عليَّ، كانت ذراعاها وصدرها ورقبتها ووجناتها وكل ذرة فيها تهبني الحب والحنان والتوافق وتتعادل مع الإخفاق، كنت أتجدد كل يوم، كلماتها، صوتها، رقتها، احتمالها لسخافاتي وغضبي، وقدرتها على التعرف على أعماقي، نهمها الأنثوي، رقتها الدفينة الغارقة وسط ركام من الانكسار والتقاليد، جرأتها، شخصيتها، ثقتها الحادة في نفسها وفي الحياة، قدرتها الفائقة على جعل الحياة محتملة، ودفعها الدائم لي في حياتي وعملي، فرحتها بكل لحظة أجتاز فيها الصعاب وأتغلب عليها. كانت تقرأ كل كلمة أكتبها، وتجمع مقالاتي وتنتظرها، كانت تحب أن تذهب معي إلى كل مكان أتردد عليه، كانت تأتي إلى الجريدة وتنتظر حتى أنتهي من عملي في العاشرة مساء. ذهبت معي إلى كل المعارض، إلى جميع المسارح والقاعات والمؤتمرات، وكانت تقرأ ولأول مرة في حياتها المقالات السياسية الطويلة والكتب، وتستمع إلى الخطب الطويلة، وعاشت سنوات الحب العارم داخل نهري الخاص.

* * *

t.me/qurssan

في الصباح التالي أضاءت الشمس «فينيسيا»، سرنا نبحث عن مكتب شركة الملاحة، ونتأمل البيوت المقامة على آلاف الصخور الصغيرة وسط المياه، منذ مئات السنين لم تكن هناك «فينيسيا»، كانت صخورًا قاحلة وسط مياه البحر، وعندما عانى أهالي الجزر المجاورة اضطهاد حكامهم العنيف وبطشهم، هربوا يحتمون بهذه الصخور من الظلم، وبنوا البيوت متلاصقة متحابة، وأصبحت البيوت وقنواتها مدينة لا مثيل لها في العالم، عائمة فوق صخورها في قلب البحر، ويتهددها البحر بالغرق بعد بضع مئات أخرى من السنين.

* * *

قالت:

. سنتزوج.

قالت:

. أنا لا أكذب هذه المرة، سافر إلى أوروبا كما تشاء، عندما تعود سأكون قد حطمت الحواجز.

وعندما انتهت رحلتي وعدت إلى القاهرة في أغسطس كانت هي في الإسكندرية، وكانت تتحدث معي يوميًا بالتلفون، قالت:

. سأعود في أول سبتمبر.

قالت:

. لقد حزمت أمري وسأترك كل شيء من أجل أن يستمر حبنا.

قالت:

. هل تغيرتَ؟

قالت:

. أشتاق إليك.

t.me/qurssan

قالت:

. لماذا لا تأتي إلى الإسكندرية فورًا؟

قالت:

. أتمنى أن أراك.

قالت:

. حدِّد يومًا للخطوبة.

قالت:

. فليكن الأسبوع الأول من أكتوبر، سنشتري خاتم الزواج عندما أحضر إلى القاهرة.

قالت:

. لقد اشتريت لك سلسلة ذهبية.

قالت:

. هل خنتني في أوروبا؟

قالت:

. حتى لو خنتني هذه المرة فسأسامحك.

قالت:

. لقد تغيرتَ قليلًا.

وانتهى أغسطس، وجاءت منى إلى القاهرة في سبتمبر، وكان لقاء ملتهبًا، أمضينا معًا يومًا كاملًا، قالت:

. لقد أتيت لك بالطعام الذي تحبه.

وأمضينا أيامًا خلال سبتمبر نطفئ الشوق والظمأ ونغرق في النشوة. قالت:

t.me/qurssan

. لم أعد أهتم بالعقبات التي تثيرها أسرتي.

قالت:

. في نهاية سبتمبر، ولكنك لم تعد تنصت لي.

قالت:

. ما زلت تعتقد أنني أكذب.

قالت:

. أنت معذور.

قالت:

. سأستعيد ثقتك بي.

قالت:

. اشترِ لي فانوس رمضان.

قالت:

. سأعد الطعام الذي تحبه لنفطر يوميًا معًا.

وفقد تلفونها حرارته، وتحدثنا مرة، وصمتنا أيامًا، وأحسست أنها غاضبة، قالت:

. فلنلتقِ في «شيراتون» في الصباح.

وجلسنا، وكانت حزينة، لم تكن قادرة على الكلام، ومسحت دمعة سقطت من عينها، قالت فجأة:

. إن أسرتي تهددني بالدمار لو تزوجنا.

قالت:

. أنت تعتقد أنني ألفق القصص والأكاذيب.

قالت:

t.me/qurssan

. انتهى الحب الذي بيننا.

قالت:

. لقد بددته أنا بتصوراتي.

قالت:

. آه.

قالت:

. أحقًا انتهى كل شيء؟

قالت:

. هذه هي الحقيقة.

وعندما عدت إلى منزلي، لم أصدق نفسي، لم أتصور روعة استقبالي بعد عودتي من أوروبا وكيف ذوى هذا كله خلال بضعة أسابيع، وتذكرت بداية رحلتي، وتذكرت بداية هذا العام نفسه، لقد تحول ما بداخلها عندما وازنت بين فداحة التضحية وبين حبي، وقررت أن تعود إلى حظيرتها، وتهجر الحياة التي اختارتها معي. عدت حزينًا، فشل الحب أن يجعل الحياة متسقة، لا بد أن هناك شيئًا قاهرًا رهيبًا قادرًا على إفساد كل شيء وتلويثه وتخريبه، هناك شيئًا بالتأكيد يدمر كل ما هو نبيل ويتربص له، كالقانون يسري على الناس والأشياء ويهزمهم ويحطمهم، ليس إعصارًا مفهومًا يعصف، ولكن حشرة سامة بطيئة، ميكروب صغير يتصاعد ويتصاعد ويوقف ببطء شديد اندفاع المياه وجريانها ويجعلها آسنة عفنة قاتلة، تقتل الزرع، وتحيل الأرض الخصبة إلى مجدبة.

* * *

واصلنا السير فوق قنوات «فينيسيا»، وصلنا إلى مكتب شركة الملاحة العربية، استمعنا إلى الكلمات المصرية، الباخرة تقوم من

t.me/qurssan

. انتهى الحب الذي بيننا.

قالت:

. لقد بددته أنا بتصوراتي.

قالت:

. آه.

قالت:

. أحقًا انتهى كل شيء؟

قالت:

. هذه هي الحقيقة.

وعندما عدت إلى منزلي، لم أصدق نفسي، لم أتصور روعة استقبالي بعد عودتي من أوروبا وكيف ذوى هذا كله خلال بضعة أسابيع، وتذكرت بداية رحلتي، وتذكرت بداية هذا العام نفسه، لقد تحول ما بداخلها عندما وازنت بين فداحة التضحية وبين حبي، وقررت أن تعود إلى حظيرتها، وتهجر الحياة التي اختارتها معي. عدت حزينًا، فشل الحب أن يجعل الحياة متسقة، لا بد أن هناك شيئًا قاهرًا رهيبًا قادرًا على إفساد كل شيء وتلويثه وتخريبه، هناك شيئًا بالتأكيد يدمر كل ما هو نبيل ويتربص له، كالقانون يسري على الناس والأشياء ويهزمهم ويحطمهم، ليس إعصارًا مفهومًا يعصف، ولكن حشرة سامة بطيئة، ميكروب صغير يتصاعد ويتصاعد ويوقف ببطء شديد اندفاع المياه وجريانها ويجعلها آسنة عفنة قاتلة، تقتل الزرع، وتحيل الأرض الخصبة إلى مجدبة.

* * *

واصلنا السير فوق قنوات «فينيسيا»، وصلنا إلى مكتب شركة الملاحة العربية، استمعنا إلى الكلمات المصرية، الباخرة تقوم من

t.me/qurrssan

بيروت إلى الإسكندرية في منتصف أغسطس، لا بد أن أصل إلى بيروت قبل قيامها، تحدثت مع سيدة مصرية سمراء، عيناها سوداوان، شعرها بني مشابه لشعر مني، ملمس يدها يذكرك بالوطن مصر، كلماتها الحانية الرقيقة غير المبتورة، دلالها ومشيتها، سرنا وسط الشوارع الممتلئة، وصلنا ميدان «سان ماركو»، السماء تمطر، وقفنا تحت البواكي الطويلة، هرب الناس من الميدان إلى داخل المحلات، وتلاصقوا، المطر ينهمر بقوة.

* * *

غرقت الشوارع وانسدت البلاعات، سرنا في الشوارع، فقدت التلفونات حرارتها، ظللت أدير قرص التلفون دون جدوى. في الصباح ذهبتُ إلى جريدتي، أمضيت بعض الوقت، التقيت بصديقين، وددت أن أراها، اشتقت إلى أن ألمس بعينيَّ شعرها الطويل، ولكن لم أرها، سرت بالعربة مع أصدقائي، كنت حزينًا ومثبطًا، قالوا:

. فلنشرب زجاجة بيرة.

شربنا، سرنا بالعربة في شوارع جاردن سيتي وأمام بعض الأماكن التي كنا نلتقي فيها، فندق النيل، «إيزيس»، «هيلتون»، «شيراتون»، البرج، المعادي، «شاليمار»، عدنا إلى وسط المدينة، ركنّا العربة، سرنا على أقدامنا في شارع سليمان، أمام مبنى الاستعلامات توقفنا لحظة، سرنا في شوارع الشواربي وقصر النيل وشريف، توقفت عيناي أمام كل بائعة اشترينا منها شيئًا في الماضي، أرهقني السير، سرنا حتى التلفزيون، توقفنا لحظة، قررنا العودة إلى مصر الجديدة.

تركت أصدقائي، قررت أن أداوي شجني وشوقي بمواصلة الكتابة، قبل أن أبدأ جربت مرة أخرى تلفونها، ما زال عاطلًا، أدرت قرص التلفون وطلبت إحدى صديقاتها، قالت:

. أهلًا.

قلت:

t.me/qurssan

ـ كيف حال منى؟ إن تلفونها لا يرد ولا أعرف أخبارها منذ فترة.

قالت:

ـ أظن أنها عادت من شهر العسل منذ أيام.

فوجئت مفاجأة هائلة، قالت الصديقة:

ـ لم تحدث غير حفلة صغيرة، وكان الأمر مفاجئًا وسريعًا، وذهبت إلى الإسكندرية مع رجل تزوجته منذ أيام.

لا أدري ماذا قلت، لا أذكر شيئًا، قلت كلامًا مرتبكًا، أحست الفتاة أنني لم أكن أعرف شيئًا، لم يعد يهم أي شيء، وضعت السماعة، تهاويت، رأسي ساخن يتجمع فيه الدم الذي في عروقي، تنفست بصعوبة شديدة لأحتفظ بتوازني، كنت وحدي في حجرتي، لم أغمض عينيَّ، تصلبت جفوني، فتحت الراديو، لم أستطع، قفلته مرة ثانية، أي مفاجأة رهيبة مذهلة، لقد انفصلنا ألف مرة وعدنا، وفي المرة الأخيرة لم أكن أدرك بالضبط، لا أعرف كيف أفكر، فكرت أن أخرج فورًا لأستطيع أن أتنفس، أستنشق الهواء. كان قد رجاني صديق لي أن أبحث لطفله عن لبن مستورد، قلت: يجب أن أخرج فورًا وأبحث له، يجب أن أفعل شيئًا. ركبت عربتي، أدرت الموتور، انطلقت العربة، سرت خطوات، أحسست بالعجز عن المواصلة، قلت: فلأتركها بجوار الرصيف، السير أفضل، تركت العربة، أوقفتها بمجهود شاق، سرت، لا أقوى على السير، قلت: فلأتحامل، فليكن سيري بطيئًا وبجوار الأسوار والجدران حتى لا أصطدم بشيء، ودخلت عشر صيدليات أو أكثر، ولم أجد لبنًا للطفل، عجزت عن المواصلة، عجزت عن العودة، أوقفت تاكسي وعدت به إلى عربتي، قدتها بصعوبة هائلة، دخلت إلى حجرتي، أحس بالوخز المؤلم في قدمي وساقي اليسرى.

قالت الصديقة:

ـ إن منى قلقة عليك.

قالت:

t.me/qurssan

- إنها تبدو بعد الزواج حزينة.

قالت:

- إن شعرها كما هو، وهي كما هي.

قالت الصديقة إنها خرجت من حجرتها لتستقبلها، وكانت تنام معه. قالت إنها أضافت حجرة جديدة واشترت بعض الكراسي. قالت منى لصديقتها إنها تعرفت على زوجها الجديد ولم يفرضه عليها أحد، وإنها تميل إليه، وإنه موظف صغير، ويملك شقة مفروشة تدر عليه نقودًا، ولا علاقة له بالسياسة، قالت منى:

- لقد اخترته بسرعة لأنني قررت الاستقرار والهدوء.

وكانت منى تلتقي بزوجها الجديد خلال الأيام الأخيرة في نفس اليوم الذي كانت تلتقي بي فيه، تتركني وتذهب إليه. وعندما يكف القلب عن الخفقان يُستباح كل شيء في الدنيا، وعندما يتراجع الحب تُصبح الحياة بشعة ورهيبة وعفنة. وقالت لصديقتها:

- لقد حدث كل شيء بسرعة حتى لا أتردد.

قالت:

- لقد تركني بعد عودته ولم يعد يحبني. وقال لي: «تزوجي أي إنسان غيري». آه... ما أبشع الكلمات والحروف التي تتكون منها الكلمات!

ليلتها ذهب أصدقائي، ليلتها لم أشرب شيئًا، ليلتها ابتلعت عددًا من الأقراص لكي أنام، ليلتها عجزت عن النوم حتى الصباح، وأنا في فراشي لا أقوى، أريد أن أنام، أريد أن أنام، الشيء الوحيد الممكن أن أترك الحياة لساعات، أغيب داخل النوم، علّني في الصباح أكون قادرًا، ابتلعت أقراصًا أخرى بلا جدوى، الخامسة صباحًا، استسلمت للأرق الفظيع، ليلة يائسة تعسة، عشر ساعات لم أنطق حرفًا، سقطت ملكتي، ملكتي أمام عينيَ سقطت وأنا

t.me/qurssan

عاجز، واحترقت مملكتي كلها عن آخرها، وأصبحت رمادًا أسود يلطخ كل النصاعة التي في الدنيا.

* * *

وكفت السماء عن المطر فجأة كما بدأ المطر فجأة، أكلنا فطائر «فينيسيا» (البيتزا)، وشربنا، ركبنا الأتوبيس لنذهب للبينالي، يمخر الأتوبيس مياه إحدى القنوات الرئيسية، اجتزنا شواطئ من الصخور، تشق المياه الراكدة وتثير ركودها، مئات الكاميرات تلتقط لحظات للذكرى، توقف الأتوبيس، نزلنا في محطة البينالي، دخلنا حديقة متسعة هائلة، أشجارها قديمة خضراء، عدد كبير من المباني والقاعات، دخلنا إحدى القاعات، فنان صنع من الحديد طيورًا تهم بأن تطير وتحلّق ولكنها عاجزة لأن قيدًا من الحديد يمنعها من الانطلاق. في قاعة أخرى تمثال لامرأة عارية محبوسة داخل قفص يواجهها رجل في قفص حديدي مماثل ورأسه مشجوج نصفين ودماؤه تسيل. قفص ثالث داخله شجرة مقلوبة مقتلعة، أغصانها إلى أسفل وجذورها إلى أعلى. في قاعة أخرى رسالة مكتوبة على لوحة كبيرة، كتبها فنان إنجليزي إلى حبيبته يقول لها:

ما جدوى الاشتراك في البينالي؟ ولماذا أشارك، والقنابل تتساقط وتدك البيوت والمزارع والناس، والشعوب يُفتك بها هنا وهناك، والإنسان يدمّر ما بداخله ويُهزم وتُهدر كل القيم باسم الحضارة؟ ما مغزى أن يعرض فنانو هذه الحضارة إبداعاتهم وعلى الجانب الآخر الفتك والبطش والوحشية والهمجية؟

أرهقنا التجول، رأينا فنانًا نمساويًا يعرض قاعة كاملة من القيشاني الأبيض تجد في نهايتها قاعدة خشبية داخل خيمة من القماش، بداخل الخيمة منضدة فوقها جثة ميتة ملفوفة ومكفنة، وفي الناحية الأخرى من القاعة تجد حائطًا مكسورًا تنفذ منه لتجد في نهايته عش طائر، داخله طائر مذبوح وبيض محطم وبجواره كرسي من القيشاني الأبيض الناصع. خرجنا من البينالي، ركبنا، دخلنا مطعمًا لنأكل، كان المطعم خاويًا، عماله يجلسون في

t.me/qurssan

ركن ويأكلون، جاء صبي صغير، قدَّم لنا الطعام، أكلنا.

كان يملأنا الإحساس بأنه لم يعد هناك شيء، وأن السامر ينفض داخلنا، وعلينا أن نلم أشياءنا ونرحل. فردنا الخرائط، قلنا ننام الليلة في «تريستي» في طريق العودة، جاء رجل عجوز، وقف بجوار عربته المركونة، قال لنا:

. وداعًا.

جاء طفل مع أمه وأشار إلى لوحة الأرقام المعدنية، وسألنا:

. بأي لغة هذه الأرقام؟

أدار عمر موتور العربة، وأدار العربة نصف دورة، وسار بضعة أمتار، وعبرنا الكوبري الصغير، ثم سار قليلًا وانحرف قليلًا وانحرف وصعدنا إلى الكوبري الضخم الممتد فوق مياه البحر الأبيض، انطلقنا. أخطأنا، عدنا إلى الخلف قليلًا، انحرفنا ناحية اليسار لندور حول صينية الأسمنت الدائرية، درنا حولها، ودخلنا في الطريق الرئيسي إلى «تريستي».

* * *

اليوم ٢٤ ديسمبر، ذهبت إلى روكسي، إلى منزل فريد، الحجرة فوضى هذا لا يهم، منذ أيام يجلس أمام لوحة من القماش، جرح فريد الدفين وقهره يداويهما بالزيت، اللوحة أمامي تكتمل كل يوم، وجهها أبيض، حولها ضربات حمراء بالفرشاة، وكأنها دمه المقهور القاني، شعرها أخضر وأبيض وبني، ويتوازن فريد كل ليلة ساعات أمام لوحته التي يرسمها وخطاباته التي يكتبها لها، الكتب ملقاة بجوار الملابس المبعثرة في كل مكان، الفراش في وسط الحجرة، وفوقه «البيك آب»، ويستمع إلى أسطوانات جاء بها من برلين، أستمع معه الآن إلى «سوناتا ضوء القمر»، أهداها «بيتهوفن» لحبيبته «الكونتيسة جويليتا» لكنها رفضته وتزوجت من «الكونت جالنبرج». تحدثنا، تذكر فريد، سالت دموعه قطرات باردة في حر قائظ، الجو معتم وبارد، اليوم الكريسماس، دهشنا لأن الناس تحتفل، رفضنا، الجريدة التى أمامى تقول إن زلزالًا

t.me/qurssan

حدث في مدينة ماناجوا عاصمة نيكاراجوا ودمَّر تسعة أعشار المدينة، وقتل حوالي خمسين ألف إنسان، وأصيب أكثر من ربع مليون آدمي، الحرائق مشتعلة، دمر الزلزال المدينة والنساء والأطفال والعجائز والمرضى والذين عجزوا عن الفرار والذين حاولوا الفرار ولم ينجحوا وسقطوا جميعًا صرعى، الغارات مكثفة على هانوي و«هايفونج» وسواحل ومدن فيتنام وقراها، بلغت القنابل التي ألقيت عليها خلال الأيام الستة الماضية ٧٥ مليون رطل من المتفجرات، قُتل الآلاف من الأطفال والنساء والرجال والأشجار والبيوت والمحاصيل والكباري والحيوانات، وقال «جياب»: «لا شيء أثمن من الحرية». وأذاع الراديو أن صبيًّا فيتناميًّا عمره ٢٤ سنة اسمه «نجوين بينه داو» أسر طيارًا أمريكيًّا برتبة كولونيل من قادة القلاع الطائرة ب-٥٢، عندما هبط بالباراشوت على حافة النهر الأحمر، اقترب منه الصبي وأطلق من بندقيته طلقة تحذير، رفع الطيار يديه مستسلمًا، تقدم منه الصبي بثبات وجرده من سلاحه، الطيار يفوق في الطول ضعفي الصبي، واستسلم دون مقاومة، أوثق الصبي يدي الطيار وأمره بأن يسير أمامه، سار الطيار مطأطئ الرأس إلى معسكر الأسرى.

قال فريد:

. ما أشد حاجتنا لرحلة أخرى، عنيفة وممتلئة وحارة!

قلت:

. نعم.

قال:

. ما هي أخبار كتابك؟

قلت:

. لم يتبقَّ منه غير ثلاث صفحات وأنتهي منه.

قال:

t.me/qurssan

. هذا إنجاز مدهش، يتوازن مع هزيمتك ويعلو عليها.

قال:

. يكفي أنك لم تكتب شيئًا طوال علاقتك.

قال:

. كيف ستكتب صفحات النهاية؟

قلت إنه في الحقيقة انتهى، ولكني أرغب في كتابة ثلاث صفحات أخرى جديدة، ضحك فريد، قلت:

. لقد خرج الأمر من يدي تمامًا في هذا الكتاب الغريب، وتحول إلى وصف لرحلتنا، داخلها منى وشخصيات أخرى.

قال فريد:

. هل اخترت اسمًا له؟

قلت:

. لم أستقر بعد، ربما أسميه «فيزا أوروبا» أو «الحب لا» أو «أحزان نوفمبر»! لا أعرف.

قال فريد برقَّة وحب:

. سنحتفل معًا يوم تنتهي منه.

قلت:

. أرغب أن ينتهي مع انتهاء هذا العام، بدأت رحلتي في يونيو، واختلطت الأحداث والشهور بين يونيو وعودتي إلى القاهرة في أغسطس، وفراقك لنا قبل ذلك في صوفيا، ثم عودتك إلى القاهرة في أكتوبر، وزواج منى المفاجئ في نوفمبر، كل هذا جعل الأمر مختلطًا وغريبًا، ولكن ماذا أفعل؟

قلت لفريد:

t.me/qurssan

. طوال فترة كتابتي كنت أتصور نفسي أعَبر عن العصر كله، عن العالم عن الإنسان عن الدنيا، وأنني أكتب شيئًا فريدًا وخاصًا، ولو تخلى عني هذا الإحساس لحظة واحدة لتوقفت، ولكن هأنذا في النهاية أحس أنه شيء لا أعرف كيف سيتصوره القارئ، قد يعجب البعض، وسيمل منه آخرون، وهو في النهاية كتاب يدفعون فيه بضعة قروش، يقرأونه في ساعة ويلقونه جانبًا، وددت لو يمس كل جروحهم، ولكن ماذا أفعل، يجب ألا يعنيني شيء، وهذا كله لا يعني شيئًا.

غمس فريد فرشاته في اللون الأزرق، ثم نقل فرشاته إلى القماش، إلى فمها، وكأنه يتواصل ويُقبّل «إنجريد» بفرشاته ولمساته، وهو غارق حالم هائم يبتعد رويدًا رويدًا.

***

العودة تتراكم في داخلي، الرحلة تنتهي، قررنا أنا وعمر أن نصل إلى بيروت خلال ستة أيام على الأكثر، ولأننا عائدون عن طريق مختلف كان هذا يتناغم مع الاستمرار، وكأننا ما زلنا نواصل، فنحن نحاذي هذه المرة البحر ونعود من جنوب أوروبا وليس من وسطها، ولكن شيئًا لا يجذبني، ومع العودة يتمازج الحزن والفرحة، ويتباطأ الشعور بالانطلاق وينزوي أحيانًا، فنحن لا نتقدم بل نعود متراجعين، العربة تسير بسرعة جنونية، ترك عمر قيادة العربة لفريد، حتى يستريح ويواصل فيما بعد، من بعيد تبدو « **تريستي**» نصف قوس يحتضن ضفاف أحد منحنيات الخليج، دخلنا المدينة، خضنا في شوارعها الرئيسية، ذهبنا إلى «السنتروم»، قلبها، ثم إلى الميناء، صعدنا الجبل المحيط بها، توقفنا، نظرنا إلى المدينة من أعلى، هبطنا، توقفنا أمام بائع في كشك مضيء يبيع شرائح من البطيخ المثلج، اشترينا، أكلنا ونحن واقفون، روحه ساخرة ولبق، سألناه عن الفنادق، سخر منا بإشارات يده وعينيه وفمه، خرجنا من المدينة، سرنا في طريق يخترق مصافي البترول الممتدة، ذهبنا إلى أحد المخيمات بجوار «تريستي»، عثرنا على حجرة في فندق، عاملنا رجل الاستقبال بحذر شديد، صعدنا، استحممت بماء ساخن، وجلست لأكتب

t.me/qurssan

بعض الرسائل، نزل فريد وعمر، تركنا الفندق في التاسعة صباحًا، عبرنا الحدود، عبرنا عشرات الأنفاق التي تخترق الجبال، وصلنا **«بلغراد»**، أمضينا ليلتنا داخل بلغراد، وفي الصباح انطلقنا بأقصى سرعة نحو بلغاريا. اجتزنا الحدود، دخلنا مدينة **«صوفيا»**، ركنَّا العربة في «السنتروم» أمام فندق البلقان، ذهب عمر ليحول بعض النقود، نمنا، في الصباح ذهبنا إلى مقهى، أكلنا، شربنا، الشمس رائعة، مضى الوقت، سيفارقنا الآن فريد، سيعود بالقطار إلى برلين، نحس بفراق فريد كسكين يمزق ويشرخ، نحس بالخوف والرهبة من المواصلة، ويشعر هو بالرهبة الهائلة من الفراق، ولكن ماذا نفعل؟ الوقت يمضي، كان الوداع حزينًا وقاسيًا، أمامنا بالضبط فريد وبجواره مباشرة لافتة مكتوب عليها: «إلى استانبول». ركبنا العربة، فريد يقف وحيدًا يلوح لنا، وانطلقت العربة ودموع الفراق في مآقينا، ابتعدنا. بدأت السماء تمطر رذاذًا، توقفنا عند أول محطة بنزين، وأمامنا من بعيد الجبل يخترقه قوس قزح. لأول مرة أرى القوس كاملًا يبدأ من الأرض ويرتفع حتى عنان السماء ثم يتقوس ويهبط ويلامس الأرض ويلتصق بها، واصلنا السير والقوس أمامنا، والظلام يزحف رويدًا رويدًا.

واصلنا وسط الظلام الدامس، مصممين أنا وعمر، أن نصل إلى الحدود البلغارية-التركية، ولن نتوقف قبل ذلك. الطريق يطمسه الظلام تمامًا، أضواء العربة، نسير بأقصى سرعة، لا نملك أن ننطلق بقوة أكبر وإلا دمرنا، الإحساس بالوحدة يجمدنا، ولا يحركنا غير عبور عربة أخرى بجوارنا ننظر في داخلها، لعل نظرة تتلاقى في عُشر ثانية وتخفف من الوحدة، العربة تنطلق، والطريق بأشجاره السوداء والتواءاته يمتد ويمتد، والظلام يتراكم، ونحن لا نتبادل كلمة، كل منا غائص داخل نفسه، كان عمر يقول دائمًا إنه مبعثر تمامًا من الداخل، وكان يتصور في البداية أن هذه الرحلة ستعيد ترتيبه من الداخل، ولكنها بعثرته أكثر. أما أنا، فقد كانت رحلة النسيان وإعادة الحياة إلى أصولها. ولكنني عائد وأنا في عنفوان الشوق لمنى والجنون بها، وأريد أن أطير لألقاها. وأيقنت أنه من المستحيل عليَّ أن أواصل الحياة بدونها.

t.me/qurssan

كل عيوبها سأحتملها، كل كلمة ستقولها سأنفذها في الحال، حياتي المستقبلة هي منى. لقد كنت مجنونًا عندما بدأت رحلتي متصورًا أنني سأعود لأحيا بدونها، بدأت في داخلي أضحك من نفسي ومن فكرة نسيانها، ولماذا أنساها وأنا بالفعل أعبدها، ولن ينبض قلبي أبدًا إلا وهي داخله؟ إنني عائد لنبدأ من جديد حياة رائعة، ولأعود بها إلى رحلة جديدة تكون في أحضاني، بالقطع سنتزوج بعد أيام من عودتي، وسنذهب إلى «فينيسيا» أنا وهي. عندما أصل إلى القاهرة ستكون منى قد أعدت نفسها ولن تضيع الوقت، سنتزوج، وسنعيش معًا إلى الأبد أروع حياة، وسترى بعينيَ كل ما رأيت، ونرى الجبال والناس والمدن والعالم ونلف الدنيا وهي معي، ولا معنى لأي رحلة أقوم بها دون أن تكون حبيبتي منى في داخلي، تدفئني وأدفئها، وأجتاز بها الجبال والأنفاق والدنيا كلها ونواصل معًا. وصلنا الحدود، اجتزناها، دخلنا مدينة «**أدرنة**» داخل الحدود التركية، الشوارع تمتلئ بالعربات الذاهبة إلى أوروبا، ستخترق الحدود في الغد إلى أوروبا وتواصل وتعود هي الأخرى مثلنا، بحثنا عن مكان ننام فيه، في الصباح عبرت العربات المنتظرة الحدود، وسرنا نحن عائدين إلى استانبول، الشمس مشرقة، الطريق هادئ ورقيق، بعد ساعتين كنا في «**استانبول**»، توقفنا لنأكل، بجوارنا محطة بنزين، غيَّرنا زيت العربة للمرة الأخيرة، استمعنا إلى أغانٍ تركية ونحن نأكل، لا نعرف كلمة واحدة، تتردد كلمة «أمان، أمان» برجاء شديد من صوت مغنية يمتلئ بالشجن والشوق الحار، ترجو وتتلهف وتحب وتأمل، ويمتزج شجنها و«الأمان» والشوق واللهفة بموسيقى حزينة صافية تسري في الدم وتهز القلب، عبرنا الدردنيل نحو الأراضي الآسيوية، الجبال تحف بنا وتحنو علينا وتحرسنا وتدفعنا إلى الأمام، والعربة منطلقة بأقصى قوتها، ونحن نجري ونلهث بأقصى طاقاتنا، وصلنا «**أنقرة**» في منتصف الليل.

استيقظنا في الرابعة صباحًا، ونحن مصممون أن نقطع آلاف الكيلومترات في يوم واحد وأن نصل بيروت. كان جنون العودة قد استولى علينا، انطلقنا من أنقرة في الرابعة والنصف صباحًا، صعدنا إلى الجبال، وتوقفنا فوق جبال طوروس تحت أشجار

t.me/qurssan

الزيزفون الحزينة، شربنا قهوة، استرحنا قليلًا ونحن على قمم الجبال التركية، اقتربنا من مدينة «**طرسوس**»، فتحنا راديو العربة استطعنا أن نستمع إلى «إذاعة القاهرة»، وجننا من الفرحة ونحن نستمع إلى «القاهرة» تغني أغنية حب قديمة:

فإني محب كما قد عهدت	**ولكن حبك شيء عجب**
ومثلك لا ينبغي له أن يصد	**ويهجر صبًا له قد أحب**
أشاهد فيك الجمال البديع	**فيأخذني عند ذاك الطرب**

الشوق يطغى، وحرقة اللقاء تدفعنا إلى أن نندفع بأقصى الطاقة، أمتلئ بالحب والشوق، أجن شوقًا إلى لقاء منى، أنا أعرفها، إنها تنتظرني، بمجرد أن ألمس بقدمي القاهرة، سترفع سماعة التلفون وتقول: «ألو»، هذه الكلمة أدفع عمري كله لكي أسمعها الآن وفورًا، صوتها، رنين صوتها في أذني، ستروي كلمة «ألو» كل ذرة مشتاقة عطشانة في خلاياي، يا رب، أريد أن تمضي كل الساعات الباقية، لكي يمتلئ وجداني بـ«ألو»، أهفو، أهفو، أشتاق، عطشان، عطشان لسماع نبرة من صوتها، ولتنفس نسمة من نسيمها، لا أعرف كيف سألقاها، قطعًا لن أحتمل اللقاء من روعته، وواصل الراديو شدوه، كانت أغنية قديمة أخرى:

اذكريني، كلما الطير شدا

مرسلًا في الدوح ألحان الصفاء

ينصت الزهر إلى أنغامه

فيحييه ببشر وانحناء

قد ظللت اليوم أبكي

من أسى دهري ومنك

وتوقفنا فجأة لنرى ماذا حدث، غادرتُ العربة وانحنيت لألقي نظرة أسفلها، كان يرقد بين العجلات الأمامية أجمل طائر رأيته

t.me/qurssan

وغير معقولة، أكبر قليلًا من البلبل، سحبته إلى الخارج وحملته في كفي، كان ما زال ساخنًا، وعيناه مغمضتان، مات لتوه، منذ لحظة واحدة، عندما صدمناه، حزنت حزنًا حقيقيًا، فكرت أن آخذه معنا، ثم قررت أن أدفنه وأهيل عليه التراب، وانتزعت نفسي بقوة للحظة، ركبت العربة وواصلنا السير، تجاوزنا **«أنطاكية»**، انطلقنا عبر الحدود التركية-السورية، اجتزناها، واصلنا الطريق إلى حمص، الأزهار تتفتح، الطريق حلو رقيق، الراديو يغني. كنا دائمًا أنا ومنى نستمع إلى الأغاني ونتلقاها وهي جديدة، ونكتشف أن كل كلمات الحب والهيام قد قلناها قبل أن يغنيها أحد، ونضحك. كان حبنا أغنية طويلة ممتدة صافية، وظل الشوق يحملني ويطير بي. في أذنيَّ صوتها يملأني، فرحتها بلقائي، وفرحتي، حبها الذي لا يهتز، لا تستطيع أن تحيا بدوني، ولا أنا أحيا بدونها، مستحيل، الدنيا كلها تضحك، الأشجار تهتز وترقص، الورود الحمراء القانية متفتحة، أروع لحظات، لحظات الشوق الجنونية لمنى، لن أحتمل اللقاء، لن أحتمله، تكفيني كلمة «ألو، أنا مشتاقة لك يا حبيبي»، سأسمع كل هذا لحظة وصولي إلى القاهرة، وصلنا **«حمص»**، وصلنا **«بيروت»**، سهرنا، ودعني عمر، سيواصل غدًا إلى قطر حيث يعمل، ركبت الباخرة، توقفت في **«الإسكندرية»**، هبطنا، وقفت أمام فتاة الجمرك، فتحت حقيبتي، هذا البنطلون الأبيض لها، هذا الشعر المستعار تحبه ويضفي على وجهها جمالًا وروعة، هذه النظارة القطيفة ستفرح بها لأنها تحب الأشياء الغريبة، انطلقت من الجمرك، ركبت عربة، الطريق الزراعي إلى القاهرة فقير ومتخلف وبدائي، ولكن هذا لا يعنيني، أحلم بها وأجن فالعربة بطيئة بطيئة، حلم حياتي **«القاهرة»**، «ألو ألو ألو»، وضحكة و«أهلًا وحشتني. كنت لا أعرف للدنيا طعمًا وأنت غائب»، أتوقع كلماتها التي ستقولها لي، وأهفو إلى أن أسمعها وأتلقاها. قلبي ينبض مع قلبها إلى الأبد، لقد غسلتني رحلتي من أدراني وأعادتني صافيًا محبًا حبيبًا لها إلى الأبد، وصلت منزلي، كانت مفاجأة رائعة لإخوتي، العاشرة مساء، جاء صديقي، شربنا وتحدثنا، سهر معي حتى الثانية صباحًا، خرج صديقي، أصبحت وحدي تمامًا، نظرت إلى السماء، قاتمة،

t.me/qurssan

هـواء أغسـطس ثقيـل، لا نسـمة واحـدة، فـروع الأشـجار واقفة، حرارة أغسطس تطبق على الصدر، الأرض ساكنة، التراب ميت، الفراش فارغ، رطوبة أغسطس تضاعف الركود، نظرت مرة أخرى إلى السماء، القمر غائب، السماء سوداء، ولا نجمة واحدة مضيئة، الدنيا يلفها سكون كالموت، وظلام كانتهاء الحياة، دخلت فراشي ونمت.

مصر الجديدة، ٣١ ديسمبر ١٩٧٢

t.me/qurssan

مختارات الكرمة

1 - مليم الأكبر. عادل كامل
2 - دنقلا. إدريس علي
3 - مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس. أحمد حجي
4 - الشبكة. شريف حتاتة
5 - الناس في كفر عسكر: أولاد عوف. أحمد الشيخ
6 - النزول إلى البحر. جميل عطية إبراهيم
7 - ملك من شعاع. عادل كامل
8 - إجازة تفرغ. بدر الديب
9 - رابعة ثالث. علي الشوباشي
10 - رباعية أيام الطفولة. إبراهيم عبد الحليم
11 - الرحلة (الجزء الأول). فكري الخولي
12 - الرحلة (الجزءان الثاني والثالث). فكري الخولي
13 - حديث شخصي: أربع تنويعات. بدر الديب
14 - الباب المفتوح. لطيفة الزيات
15 - أوراق شخصية. لطيفة الزيات
16 - الشمندورة. محمد خليل قاسم
17 - بيت سري. عثمان صبري
18 - هوامش الفتح العربي لمصر. سناء المصري
19 - صدمة طائر غريب. كمال القلش

t.me/qurssan